* *

بناء الشخصية الإسلامية من خلال السيرة النبوية

الدكتور رشيد كُهُوس•

تمهيد:

الحمد لله الملك الشكور، القادر الغفور، الذي بيده مفاتيح الأمور، عالم السر والنجوى، وكاشف الضر والبلوى، وقابل التضرع والشكوى، كون الأكوان، ولون الألوان، ودبر بحكمته الفلك والزمان، وعمر خلقه باللطف والفضل والإكرام، قبض قبضة من نور جلاله وأغمسها في بحر جماله وقال لها كوني محمدا عليه الصلاة والسلام، وصارت وأشرقت به غياهب الظلم، قربه إلى حضرته العليه وأدناه واختاره من خلقه واصطفاه وشرفه على رسله الكرام، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأخيار.

وبعد؛ فيقول الله عز اسمه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1].

• – أستاذ السيرة النبوية وعلومها–والسنن الإلهية بكلية أصول الدين بتطوان التابعة لجامعة القرويين سابقا ولجامعة عبد المالك السعدي حاليا /المغرب

[1] سورة الجمعة: 2.

لقد أرسل الله تعالى نبيه الكريم سيدنا محمدا ﷺ إلى الناس كافة ليتلو عليهم آياته، ويشــــرحها لهم آية آية، ويربيهم عليها ويخلقهم بأخلاقها، ويدلهم على ربهم، ويزكي نفوســـــهم ويظهرها مما علق بها من أرجاس وأدران، فتســـــمو روحانيتهم نحو المعالي، فيعرفون ربهم حق المعرفة، ويعبدونه حبا وشوقا...

وقد جاء النبي ﷺ بنظام كامل وشــامل لبناء الشــخصــية الإســلامية، نظام يخاطب العقل والقلب والروح، ليسـمو بالإنســان إلى طلب أعلى المقامات يمكن الوصول إليها، وذلك وفق سنن الله في التدرج في التربية والتزكية، وعلى مراحل مختلفة.

هذا علاوة على أن مراعاة التدرج كانت سـمة لازمة للتربية النبوية للصـحابة في مكة والمدينة، لأن بناء الإنسان وتربية نفسه الأمارة بالسوء وغسلها وتزكيتها وتطهيرها حتى يزول ما علق بها من شــــرك وجبروت و آفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج ومراحل عديدة.

فالتدرج لازم لتربية النفوس وبناء الإنســان؛ إذ هو ســـنة من ســـنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها، فكما بدأت الدعوة النبوية بالتدرج عبر مراحل، فكذلك بناء الشـــخصـــية الإســـلامية والدعوة جزء منها، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ لا يمكن أن نتصــور تغييرا بين عشــية وضــحاها، فلو كان الأمر كذلك، لكان ســيد الوجود أولى به، وقد أخذ بســـنة التدرج في كل أنواع الجهاد، من تربية ودعوة وقتال في ســـبيل الله وبناء المجتمع الإســـلامي...لأن البناء التربوي للشــخصــية الإســلامية عليه مدار كل شــيء؛ إذ لا يمكن أن نتصــور جهادا بدون تربية.

هذا فضلا على أن البناء التربوي تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماض، وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات. هذه المعالجة تريد من المربي أو المصحوب أن يتدرج في التربية، وتريد منه حلما كثيرا وتؤدة، وصبرا طويلا، وتنويعا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة، ويشتد عود الغرس.

والله جل في علاه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق الإنسان عبر أطوار نطفة فعلقة فمضغة...، وكذلك الحيوانات والأشجار والنباتات، ونزول الغيث... وكذلك نزول القرآن بالتدرج، وهو سبحانه تعالى وتقدس قادر على أن يقول للشيء كن فيكون، ومع ذلك كان الخلق في تدرج لينبهنا على أهمية هذه السنة الإلهية في الحياة، فالأمة المستخلفة في الأرض والمبشرة بالخير والمتطلعة إلى التمكين والظهور في الأرض لابد لها أن تسلك سبيل التدرج في كل شيء.

ويبدو أن استيعاب هذه السنة الإلهية يعين على حل الكثير من المشكلات، واقتحام العقبات الكأداء.

ولذلك مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما في مكة، وعشر سنوات في المدينة يربي أصحابه على الإيمان والمحبة والبذل والتؤدة والجهاد... مراعيا سنة التدرج، وسنة الله في تغيير ما بالأنفس، فتدرجت التربية من صحبة النبيﷺ، إلى الإيمان بكل أركانه، وذكر الله وعبادته، إلى اختبار الصدق والإخلاص بالابتلاء، إلى البذل والسخاء، إلى ربط العلم بالعمل، إلى التميز عن المشركين ومفارقتهم، إلى الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، إلى تجديد قصدٍ ومضاءٍ في الطريق، إلى اكتمال الرجولة والجهاد والموت في سبيل الله، وهذا ما سنفصل فيه إن شاء الله.

هذا ، ويهدف هذا البحث إلى إبراز المنهاج النبوي في بناء الشخصية الإسلامية، والكشف عن وسائل بناء هذه الشخصية القرآنية من خلال السيرة العطرة.

ومن ثم فإن بناء تلك الشخصية المسلمة يحتاج إلى أسس ومقومات نجملها في النقاط الآتية:

1- محبة رسول الله ﷺ.
2- البناء من خلال الجماعة المنظمة.
3- البناء الإيماني.
4- الأخلاق.
5- الصدق والخروج عن خصال النفاق.
6- البذل والعطاء والاقتصاد.
7- العلم النافع والتفقه في الدين.
8- العمل الصالح.
9- التؤدة أو الصبر وتحمل الأذى.
10-الجهاد في سبيل الله.

وتعتبر هذه العناصر أهم العناصر الكبرى والجامعة في بناء الشخصية الإسلامية، كما يتجلى ذلك في السيرة النبوية، وفي المنهاج النبوي في بناء الرعيل الأول. كما سيأتي بيانه.

1-محبة النبي ﷺ والتعلق بشخصه الكريم :

لقد "عمد النبي ﷺ إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غَنَاءها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا وإنسانا متصرفا. وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائدا بصيرا يقود الأمم"[1]؛﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

وعليه، فإن الخطوة الأولى في بناء الشخصية الإسلامية هي المحبة في الله، هي المهيع إلى النصر والتمكين، والفوز المبين في الدنيا والآخرة، بهذا تربى الصحابة ﷺ في حضن الصحبة النبوية في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة، وفي مسجد المدينة بعد الهجرة، يسقيهم زُلال محبة الله تعالى، ومحبة بعضهم بعضا، ومحبة الموت في سبيل الله، فبالصحبة يبرأ العليل ويشفى الغليل ويبدأ التغيير.

وهذا ومن المعلوم أن النصوص وحدها لا تصنع شيئا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكا.

---

[1] ينظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن علي الندوي، ص155-156.

[2] سورة الأنعام:122.

ومن ثم جعل سيدنا محمد ﷺ هدفه الأول "أن يصنع رجالا لا أن يلقي مواعظا، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة. أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم، وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون.

فلما انطلق هؤلاء الرجال في مشارق الأرض ومغاربها، رأى الناس فيهم خلقا جديدا لا عهد للبشرية به.

ولقد انتصر محمد بن عبد الله ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصا، وحوَّل إيمانهم بالإسلام عملا، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفًا. ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب"[1].

إن الصحابة ﷺ لم ينشأوا تنشئة عفوية على بذل الغالي والنفيس في سبيل الله، إنما تشربوا من معين الصحبة النبوية، وارتووا من نبعها، فكانوا رجالا تهابهم ملوك الدنيا وقياصرتها.

إنهم فازوا بخير الدنيا والآخرة، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد أمحزون:"لقد كان المسلمون الأولون أسعد الناس حظا بتربية النبي ﷺ وأقربهم منه في جميع الأحوال، ولهذا كانوا النواة الصلبة والأساس المتين الذي بني عليه صرح الإسلام وكيانه"[2].

---

[1] دراسات إسلامية، سيد قطب، ص27.

[2] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص95-96.

إن الصحابة ﷺ ما كانوا رحماء بينهم متحابين متصافين متآخين إلا بفيض صحبتهم للمصحوب الأعظمﷺ ومحبتهم له، لقد أحبوه ﷺ محبة شديدة، وتشربوا من معينه الصافي، فأفاض الله عليهم من بركة محبته ما صيرهم إلى أن يفتدوه بالمهج، فكانت أخلاقهم قرآنية، وتربيتهم قرآنية، ومعاملتهم للناس قرآنية، ومعاشرتهم لأهاليهم قرآنية، وتربيتهم لأولادهم قرآنية، ومواقفهم قرآنية، فرضي الله عنهم جميعا، فما بلغوا ما بلغوا إليه إلا بالمحبة والصحبة وبها سموا صحابة.

لم تكن محبتهم للرسول الكريم ﷺ وصحبتهم له عاطفة تؤكل بالمظاهرات والقسم، إنما كانت يقينا يسيطر على الأفئدة فيترجم في العمل إيثارا وبذلا وتعرضا للأذى والموت وهجرة المال والولد، في ظروف قاسية تكالب فيه أعداء الإسلام على النبي وصحبه واشتدت الأزمات وقل النصير. لذلك كانت أعمالهم أفضل الأعمال وكانوا أفضل الأجيال.

فبالمحبة بدأ بناء الشخصية الإسلامية والجماعة المسلمة القوية والرعيل الأول، محبة مركزة على شخص رسول الله ﷺ خالطت القلوب بشاشتها وحولت غلظة الأعراب رحمة ورقة، والمحبة دفعت المحبين من الأصحاب للبذل والعمل والصدق في كل ذلك، والمحبة مع التصديق كشفت عن العقول البدائية حجاب الغفلة فذكروا الله وانجلت لهم لوائح الغيب حتى كانوا من أمرهم على يقين يرون الجنة والنار والملائكة بالبصيرة رؤية أقوى من رؤية العين ولا مجاز في التعبير.

إن المحبة تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها، وتحقق لهم غايات لم يكونوا بدونها حققوها، وتبوئهم مقاعد الصدق عند الباري جل ذكره لم يكونوا لولاها

متبوئيها، وهي مطية القوم التي مسراهم على ظهرها إلى الحبيب الطبيب، الأواه المنيب، وسبيلهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم من قريب.. [1].

لا جرم "أن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء، ووسائل الارتقاء.

إن مشاعرك ترقى عندما تسمع النغم العذب، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة، فيضحكون، ويبكون، ويهدؤون ويضجون.. فما ظنك بقوم يتبعون رجلا تكلمه السماء، ويتفجر من جوانبه الكمال، ويسكب على من حوله آيات الطهر؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة نقاها فرد عليها سناءها. إن للعظماء إشعاعا يغمر البيئة التي يظهرون فيها، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز، فتنطوي في مجاله، وتمشي في آثاره!!

وقد التف حول محمد ﷺ فريق من الربانيين الأتقياء، كانوا له تلاميذ مخلصين، فزكت –بصحبته– نفوسهم، وشفت طباعهم، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب.

ولا تحسبن العقل الجبار –مهما أوتي من نفاذ– يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة؛ فإذا لم تسدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدي طريقا، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب، إنه يحكم القيادة، ويضبط الآلات، ويرسل أنوار مصابيحه في أحشاء

(1) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، 3/9.

الغيوم المتراكمة. فإذا لم يتلق إرشـــادا يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط.. فإنه سيظل يحلق عبثا.. ثم تهوي به الريح في مكان سحيق"[1].

وكان الصـــحابة ﷺ من أجل محبة ربهم -عز وجل- ومحبة نبيهم الكريم ومحبوبهم الأعظم ﷺ، يقاتلون الإخوة والآباء المشـركين، وكانوا يترسـون عليه في الحرب بأجسادهم، تقع السهام في نحورهم دونه ﷺ. وكانت محبة لا تتستر وكانت محبة شـخص ماثل. ولو لم يكن هو رسـول الله ووليه ونبيه لكانت هذه المحبة أشـبه أن تكون وثنية. لكنها كانت محبة صـديقين لمن جاء بالصـدق. والوثنية الزعامية في عصـــرنا ادعاءات للمحبة ومظاهرات كاذبة جوفاء ككل الطقوس الوثنية.

لا جرم أن علاقة الصـحابة ﷺ بالنبي ﷺ كانت علاقة ملازمة ومصـاحبة. طابعها التأسـي والاقتداء به في القول والعمل، ومتابعة في السـراء والضـراء، والمنشط والمكره واليسر والعسر[2].

بفضل تلك المحبة للجناب الشريف انتقلوا من التركيب الاجتماعي الجاهلي الذي يوالي الفُرقة والعصـــبية إلى عمران إســـلامي ومجتمع أخوي، إلى بناء عضـــوي روحه المحبة وعموده الفقري وهيكله الطاعة لله تعالى ولرســـول الأمين ﷺ.

هذا، و"كم من فلاسـفة عالجوا شـؤون الكون والحياة. فمنهم من ضـل عن الحق على طول بحثه عنه، فلم يصل إليه قط! ومنهم من استغرق في الوصول

---

[1] فقه السيرة للغزالي، ص200.

[2] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص153.

إليه أعواما طوالا. ولو مشى وراء الرسل لانتهى إليه في أيام قصار، وهو في مأمن من الشرود والعثار!

ثم إن الإنسان ليس عقلا فحسب، إنه -قبل ذلك- قلب ينبغي أن يسلم من الأهواء والآثام، وأن ينجو من الشقاوة والظلام، وأن يكون في حنايا صاحبه قوة تسوق إلى الخير والحب، وحاديا يهفو إلى الجمال والرحمة..

والمرسلون يتعهدون ضمائر البشر بالتعليم والتربية.

وأشبه الناس بهم من اقتفى آثارهم وأخذ طريقهم وأول أولئك قاطبة من صحبوهم في حياتهم، وقاسموهم أعباء دعوتهم ومغارم جهادهم.."[1].

ومن ثم فإن سر الارتقاء الروحي والجماعي الذي أدركه صحابة سيدنا محمد ﷺ أنهم كانوا موصولين بالله على أساس صحيح فلم يشعروا في الفعل له بما يشعر به الكثيرون من عنت وتكلف، ولا يعانون من شرود وحيرة.

تالله لقد فاز صحابة رسول الله ﷺ ومن سار على نهجهم واهتدى بهديهم بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم معية مصحوبهم ومحبوبهم أوفر نصيبا، وأقرب مقاما، وأعظم منزلة، وقد قضى ربنا جل في علاه يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، ومن أحب قوما حُشر في زمرتهم، فيا لها من سعادة أبدية، ونعمة خالدة، ومنة ربانية ونعمة إلهية.

فنخلص من ذلك أنه يجب على أمة الحبيب ﷺ أن يحبوا نبيهم أعلى درجات المحبة، لأن محبة النبيﷺ هي مظهر محبة الله سبحانه وتعالى، فمن

[1] فقه السيرة للغزالي، ص201.

أحب مَلِكا أحب رسوله، ورسول الله ﷺ حبيب رب العالمين، وهو الذي جاءنا بالخير كله، وتحمل المتاعب من أجل إسلامنا ودخولنا الجنة.

وعليه فإن أهم الميزة التي امتاز بها الصحابة رضي الله عنهم هي التعلق الشديد بسيد الوجود ﷺ، تعلقوا به ﷺ؛ فلم يكن عندهم مجرد مبلغ أدى رسالته ومضى، بل كان رسول الله ﷺ. ذلك الشخص الخالد الذي اصطفاه الله تعالى وأرسله لإحياء قلوب ماتت ونفوس خربت وعقول عشش فيها الجهل... القرآن رسالته الخالدة والبيان بيانه. يسمو بهم ذلك الحب العميق لرسول الله ﷺ، وتسمو بهم رسالة القرآن الخالدة ، إلى أعلى المقامات.. إنهم تربوا في أحضان النبوة تربوا، ومنها رشفوا واستقوا حتى تفجرت في قلوبهم ينابيع الحب والإيمان وكانوا أبر الناس قلوبا وأعمقهم علما. بالحب تربوا لا بالقهر والتسلط.

ألا يا محب المصطفى زد صبابة … وضمخ لسان الذكر منك بطيبه

ولا تعبأن المبطلين فإنما … علامة حب الله حب حبيبه

وعلى ما سبق، فالحب الذي بُنيت عليه الشخصية المسلمة الأولى، مَجْلاة للقلوب من الصدأ والكسل، ومَدْعاة لتحريك الهمة للجد والعمل، ومفتاح لمغاليق القلوب، ومطهرة للنفس وما علق بها وما جبلت عليه من حب الدنيا وشهواتها وملذاتها، والحب مفتاح لكل خير مغلاق لكل شر ، هو عماد الدين، وباب النصر والتمكين، لولاه لما استقام البناء على وجه الأرض لحظات، ولا عمتنا البركة من السماوات، إنه السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم، السبيل الموصل إلى جنات النعيم.

إن حب رسـول الله ﷺ جوهر الحياة، ولد في نفوس طاقة لا تعدلها طاقة أخرى في الكون، ولا تقاربها، وحرك مشاعرهم، ورفع هممهم، حتى أفدوه بآبائهم وأمهاتهم وأبنائهم وأرواحهم وكل ما يملكون.

فمحبة سيدنا رسول الله ﷺ ليست كلمة تلهج بها الألسن الغافلة، بل هي طاعة وموافقة واتباع للمحبوب وبذل النفس والنفيس والمهج في سبيلها، أما إذا كانت مجرد دعوى فسرعان ما تتخطفها الأهواء، وتتصيدها الشياطين، فتتمزق هذه الدعوى وتذوب؛ إذ لا يمكن أن نجد محبة دون طاعة واتباع. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وقال جل وعلا: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[2]، وقال عز من قائل: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

تلك المحبة إذن، هي الترياق المجرب، هي المفتاح الذي يقود الأمة إلى الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، كما قادت سادتنا الصحابة رضوان الله عليهم ففتحوا البلاد، وفتحوا قلوب العباد، هي المفتاح الذي يدفع الإنسان إلى اقتحام العقبات الكأداء، من أجل البناء بناء صرح العمران على أس القرآن وسنة النبي ﷺ إمام أهل الإحسان. إن البناء الذي ينسى هذا الأساس المتين لا يمكن أن يحمي صاحبه من الأخطار الوافدة إليه بشكل من الأشكال، بل سرعان ما ينهار على أم رأسه.

---

(1) سورة آل عمران:31.

(2) سورة النور:54.

(3) سورة النور:63.

إذا انفك قلب الإنسان عن هذا التاج -المحبة- العظيم، ما الذي يبقى له؟ لاشك يصبح قلبه مأوى ووكرا لأفاعي الريب وسوء الظن، وذئاب الهوى والطمع...

إذاً فصبر أولئك الرجال وثباتهم وجهادهم وهجرتهم ومفارقتهم للأهل والوطن لم يقم إلا على دعامة رئيسة، ألا وهي دعامة الحب الشديد للنبي المجتبى ﷺ.

والمحبة الصادقة في صورها الرائعة كما عاشها الجيل الأول الأنموذج الخالد جيل الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم من بعدهم، هي التي تحتاج إليها الأمة في هذا الوقت؛ إذ هي مصدر المثل العليا والعزة والكرامة، فهي من أجل أعمال القلوب ومن أوثق الروابط، فليست بالأمر الهين اليسير، ولنا في الصحابة أروع الأمثلة في تقديم المحبة على كل شيء، فكانوا الصورة الصادقة لها، والكلمة الهادية الباقية. فمن أراد اللحاق بهم سلك طريقهم وبذل جهده في ذلك.

وهنا لابد أن أؤكد أنه عندما تمتلئ القلوب بالمحبة، وعندما تتآلف القلوب وتوثق الروابط الودية، وعندما تسري روح العمل الجماعي في جسد الأمة، فلن تستطيع دول الشرق ولا الغرب وقوى الإنس والجن أن تحطم هذه الروابط بين أفراد الأمة المسلمة. يقول الله جلت حكمته: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

وبناء عليه، فكيف تم بناء الشخصية المسلمة داخل جماعة المؤمنين، وما هو أثر العمل الجامعي عليها؟

---

(1) سورة آل عمران:160.

2- البناء داخل جماعة المؤمنين:

كان المسلمون الأوائل المحبون لسيد الأوائل والأواخر يجتمعون خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ، وكان يجتمع فيها ما يقارب أربعين شخصا، وكلما دخل رجل في الإسلام إلا وُجه إلى هذا البيت الطاهر ليتلقى التربية الإيمانية وسط الجماعة ومن معينها النبوي بصحبة مباشرة للمصحوب الأعظمﷺ، وفي ذلك المحضن التربوي التقى الفاروق عمرﷺ عند إسلامه بجماعة المؤمنين الأولين، ليتشرب من الصحبة النبوية، ويرتشف من ضرَبِها.

يُسْتَنْتَجُ من ذلك أن جهاد التربية كان داخل جماعة المؤمنين، وفي محضنها التربوي(1)، وبناء عليه فإن التربية لا تتم إلا في وسط الجماعة(2).

والجماعة تختلف شكلا ومضمونا عن المجتمع، إنها ذلك الكائن العضوي الحي الذي يجمع بين أعضائه رباط ثلاثي متين، كما جمع بين الصحابة ﷺ، أحدها رباط المحبة وقد آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكانت محبتهم قوية وشديدة لسيدنا رسول الله ﷺ، هذه المحبة أثمرت المحبة لبعضهم بعضا، وثانيها الطاعة لسيدنا رسول الله ﷺ، وآخرها النصيحة.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد أمحزون:"ولا يتم معنى الجماعة إلا بالمفهوم الذي طبقه الرسول ﷺ مع أصحابه، حيث ألزمه الله عز وجل في مكة بالمؤمنين وألزمهم به، وجعل ولاءه وولاءهم لله، وخصَّهم وحدهم دون غيرهم

---

(1) يقول الشهيد سيد قطب:"يجب أن تكون هناك محاضن لتربية الأفراد تربية إسلامية. هذا هو الأساس". دراسات إسلامية، ص77.

(2) حكم العمل في جماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الله عزام، ص32.

بمحبته ورضاه، وأخذ يغرس في نفوسهم طاعة الله ورسوله، والاجتماع على ذلك، ومحبة المؤمنين ونصرتهم، وبغض الكفر والشرك وأهله"[1].

وهكذا بنى النبي ﷺ الشخصية المسلمة على دعامة العمل الجماعي وعلى الروح الجماعية، والارتباط الوثيق بالجماعة، فكانوا منسجمين ومرتبطين ارتباطا وثيقا قيادة وقاعدة، وأفرادا وجماعة، كما جاء في الحديث عن النُّعْمَانَ بْن بَشِيرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى» [2].

وعليه، فلابد للبناء من جماعة، "ولابد للجماعة من قيادة تتولى مسؤولية التنظيم وبرامج التوجيه، بتحديد الأولويات والمراحل والأهداف، وتقوم بتعبئة الطاقات، وتنظيم العلاقات بين أفراد الجماعة، وتوزيع المسؤوليات أو المهمات، وتوجيه الكفاءات، وتنسيق الجهود للسير في خطى ثابتة وحثيثة نحو الهدف المنشود"[3].

ولأهمية القيادة جعل النبي ﷺ على الأنصار اثني عشر نقيبا من الأوس والخزرج لما بايعوه بيعة العقبة الكبرى، لأن في القيادة جمع الكلمة، والتحام الصف، والتآلف، وجمع الجهود، والسلامة من الخلاف.

---

[1] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص154.

[2] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح6011.

[3] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص150-151.

3-البناء الإيماني:

لقد بنى النبي ﷺ الشخصية الإسلامية على دعامة الحب والروح الجماعية، وقام بترسيخ العقيدة الصحيحة النقية الصافية في قلوبها، وربطها بعبادة الله تعالى والتوجه إليه طاعة والتجاءً وذكرا.

فما هي معالم البناء الإيماني للشخصية الإسلامية في عهد النبوة؟

أ)-تصحيح العقيدة: لقد عني القرآن المكي أولا بإصلاح العقيدة، وذلك ببيان مقتضيات توحيد الله ﷻ، وتوحيد الأسماء والصفات، لأن المسلمين كانوا حديثي عهد بالجاهلية، لذلك فمن البعثة إلى هجرة سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة والآيات تنزل لتصلح العقيدة وتخلصها مما علق بها من شوائب الجاهلية، حتى تتمكن القلوب من التوحيد الصحيح لله تعالى، وتطهر النفوس من أدران الوثنية والجاهلية.

ومن ثم، فإن أول عمل بدأ به ﷺ لبناء الشخصية الإسلامية الأولى؛ هو تغيير النفس البشرية وما لصق بها من معتقدات وأفكار وتصورات... وتربيتها على التوحيد الخالص لله رب العالمين، بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالك كل شيء ومدبره، ومحيط بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء صغيرا كان أم كبيرا، ومنزه عن النقائص، وموصوف بالكمال، ومصدر كل خير ونعمة في هذا الوجود، وأنه يحصي أعمال بني الإنسان بواسطة كرام كاتبين حفظة، وأنه سبحانه ينصر من نصر دينه وتمسك بكتابه وسنة نبيهﷺ، وأنهﷻ يبتلي عباده المؤمنين بالبأساء والضراء ليختبر صدقهم وثباتهم، وأن الجنة حق والنار حق والبعث حق والحساب حق...، وأن الدنيا إلى زوال، وأن الآخرة هي دار

الخلد... فتطهر الصحابة ﷺ -ببركة الصحبة النبوية- من كل شائبة تخالف التوحيد، وثبتوا أقدامهم في أرض الإيمان.

تربوا رضوان الله عليهم على كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، هذه الكلمة لم تكن مجرد كلمة تقال باللسان، ولا يمكن أن تكون كذلك في أي مرحلة من مراحل الدعوة، فضلا عن مرحلة التأسيس التي هي أشق المراحل وأهمها؛ وإلا فما معنى تلك المعاناة القاسية التي لقيها المسلمون من المشركين وما موجبها؟! وإنما كانت هذه الشهادة نقلة بعيدة ومعلمًا فاصلاً بين حياتين لا رابطة بينهما: حياة الكفر، وحياة الإيمان، وما يستلزمه ذلك من فرائض وتعبدات ومشقات أعظم وأكبر من فريضة الصلاة والزكاة ونحوها.

ولهذا، فإن توحيد الله تعالى هو الغاية التي خُلق من أجلها الإنسان، وهو الحقيقة الكبرى لهذا الكون، لذلك لم يكن من الصدفة أن يقضي رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا يحدث الناس عن قضية العقيدة، ويربي أصحابه على تجريد التوحيد، ورسخ في قلوبهم المعرفة الحقة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له، والطاعة المطلقة له، وعدم التقديم بين يديه، والرضا والتسليم بقضائه.

هكذا رسخ القرآن الكريم في قلوب الصحابة ﷺ العقيدة الصحيحة بهذا المفهوم، وآتت تربية الرسولﷺ لأصحابه ثمارها المباركة في هذا الجانب، فلم يحتكموا إلا لله، ولم يطيعوا ويتبعوا أحدا على غير مرضاة الله، ولم يوالوا ويعادوا إلا في الله، ولم يستغيثوا ويستعينوا إلا بالله، إلى غير ذلك من حقائق

ومعاني هذا الأصـــل العظيم الذي قرره القرآن الكريم والســـنة النبوية في الفترة المكية[1].

وبعد البنـاء على أس التوحيد الخـالص انتقل إلى أمور عقـديـة أخرى، كالإيمان بالملائكة والرســل واليوم الآخر والحســاب والجزاء والبعث والنشــور، والقرآن ينزل في كل مرحلة يبين مقتضياتها والمطلوب فيها.

ولقد رسم لنا النبي ﷺ منهاجا متميزا في بناء الشخصية المسلمة على معاني الربانية وتحمل أداء رســـالة رب البرية، وكان ﷺ مهتما ببناء القاعدة الصـــلبة وتربية أتباعه على معاني العقيدة الصحيحة، فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأول من بعثته على أن يعطي الناس التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدركا أن هذا التصـور سيورث التصـديق واليقين عند من صـفت نفوسـهم، واستقامت فطرتهم[2].

وهكذا بدأ النبي ﷺ يبصـــرهم ويذكرهم بوظيفتهم ورســـالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصـــير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورهم ورســـالتهم في الأرض. وتأثرا بتربيته الحميدة تولدت الحماســـة والعزيمة في نفوس أصـــحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كســـل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع في

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، الصفحة 26 وما بعدها بتصرف.

(2) ينظر: فقه النصر والتمكين، محمد علي الصلابي، ص241.

مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[1].

وبذلك الإيمان القوي والعقيدة الصحيحة، وبتلك الصورة الناصعة آتت العقيدة ثمارها المباركة في مواقف الصحابة وهديهم؛ فلم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا عليه، ولم يلتجئوا إلا إليه، وصدعوا بالحق في وجه الباطل لا يخافون لومة لائم؛ لأنهم علموا حق العلم أن كلمة الحق لا تقدم أجلاً ولا تؤخر رزقا[2].

تلك إذن، هي العقيدة الصحيحة التي بني عليها الجيل الأول ﷺ في حضن الصحبة النبوية، والجماعة المؤمنة طوال ثلاثة عشر عامًا في مكة، فكانت نتائجها باهرة، وشجرتها طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ب)- عبادة الله تعالى: إن من أهم عناصر بناء الشخصية المسلمة عبادة الله وحده، وملازمة ذكره بالغدو والآصال، والإقبال عليه في المنشط والمكره، واليسر والعسر.

ذلك بأن البناء "على أساس العبادة يزود الإنسان دائما بشحنات متتالية من القوة المستمدة من قوة الله، والثقة بالنفس المستمدة من الثقة بالله، والأمل بالمستقبل، المستمد من الأمل بنصر الله وثواب الجنة، والوعي والنور المستمد من نور الله.

---

[1] نفسه، ص244.

[2] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص23.

هذه الشحنات التي تدفع المسلم دائما إلى الأمام، وتهبه القدرة المستمرة على الدأب والجهد، وتقديم كل طاقاته حية منتجة، واعية مستمرة.

والإسلام يحرص حرصا شديدا على استمرار هذه الشحنة الحية التي تعبئ القلب، وتنير له الطريق في أصعب الظروف وأحلكها، فينهض من كبوته كلما تعثر، ويستنير بنور العبادة والصلة بالله كلما أظلم ما حوله، حتى يقصد عبادة الله في كل أعماله، ومعاملاته وقضاء مآربه"[1].

ت)-ذكر الله تعالى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ، فَقَالَ: ﴿سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ﴾. قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: ﴿الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ﴾»[2].

وعليه، فإن ذكر الله ﷻ هو العلاج الرباني والدواء القرآني لأمراض النفس البشرية، به تزكى النفوس وتحيى القلوب وتسمو روحانية العبد.

فذكر الله تعالى هو تذكره، في استحضار جلاله، وعظمته، وقُدرته، وكل ماله -سبحانه- من صفات الكمال والجلال... ، فبالذكر يرتفع الإنسان عن هذا العالم الترابي، وعن حطام الدنيا الفائت، ذلك بأن الداء الذي يغتال أَمْنَ الناس، ويَقُضُّ مضاجعهم ما يدخل عليهم من هموم الدنيا، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها.. وإنه لا دواء لهذا الداء، إلا باللجوء إلى الله، والفرار إليه، وتذكر سلطانه المبسوط في هذا الوجود، وأمره القائم على كل موجود.

---

(1) أصول التربية الإسلامية، النحلاوي، ص52. منهج التربية الإسلامية، قطب، 37/2.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، ح6808.

وهنا أود أن أشـــير إلى أن الإكثار من ذكر الله، يُفيض على الذاكر أنوارا من جلال الله وبهائه، وإذ هو في حمًى عزيز لا ينال، وفي ضـــمان وثيق من أن يهون أو يذِلّ لغير الله الواحد القهار..[1].

ولهذا قام النبي ﷺ ببناء الشخصية المسلمة بذكر الله تعالى والإقبال عليه، فزكى أرواحهم بأنواع الطاعات، كالتهليل والتســـبيح والتحميد، وقيام الليل، والصــلاة –فرائض ونوافل– وتلاوة القرآن، ومجالس الإيمان، والتأســي بأذكاره ودعواته ﷺ، والدعاء بآدابه، والصـــلاة على النبي ﷺ، والتوبة والاســـتغفار، والخوف والرجاء، وذكر الموت، ومكارم الأخلاق، حتى تطهرت نفوســـهم من أدرانها واتصلت بخالقها.

وحضهم على الإكثار من الاستغفار في سننه العملية:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضـــي الله عنهما قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُـــولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**»[2].

كما حضهم على الإكثار من الكلمة الطيبة: وعن أبي هريرة ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « جَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ ». قِيلَ يَا رَسُـولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا؟ قَالَ: « **أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ**»[3].

وحضـــهم بالإكثار من الصـــلاة والســـلام عليه: فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبيﷺ قال: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الأَوْفَى إِذَا صَلَّى عَلَيْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ

---

[1] التفسير القرآني للقرآن، الخطيب، 110/3 وما بعدها.

[2] سنن أبي داود، كتاب سجود القرآن، باب في الاستغفار، ح1516، سنده صحيح.

[3] مسند الإمام أحمد بن حنبل، 359/2.

فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ وَأَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَذُرِّيَّتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[1].

وذكر الله تعالى هو مصب نهر الإيمان ومصدر نوره، وهو الوقود والزاد الذي يرفع الهمم ويشحذ الذمم نحو المعالي، ويطمئن القلب، قال الحق جل ذكره:﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2].

وخلاصة القول: يندرج تحت البناء الإيماني مجموعة من شعب الإيمان التي مجموعها كما جاء في الحديث[3] بضع وسبعون شعبة، هذه الشعب عبارة عن روافد يتألف منها نهر الإيمان، بها يكتمل الإيمان، ويكون المؤمنون أهلا لنصر الله؛ إذ لا يمكن أن نتصور نصرا بلا تربية إيمانية تطهر النفوس مما علق بها من درن الدنيا ورجس الجاهلية.

وهكذا فإن البناء المرتكز على أساس إيماني وأخلاقي هو وحده الذي يحفظ للشخصية المسلمة توازنها في الأرض.

---

(1) سنن أبي داود، ح982.

(2) سورة الرعد: من الآية28.

(3) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ». صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ح153. سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب ذكر شعب الإيمان، ح5005.

4- الأخلاق:

إن البناء على أساس الإيمان والأخلاق هو الميزان الذي توزن به خطوات الأفراد والجماعات والأمم، بل هو الأساس الذي تبنى عليه عظمة الأمم ونهضتها.. ولقد بنى النبي ﷺ أصحابه على مكارم الأخلاق والقيم الإيمانية.

بل إن المقصد الأساس للبعثة النبوية هو إتمام مكارم الأخلاق وصالحها لقوله ﷺ: «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»[1].

وارتبطت الأخلاق الإسلامية بعقيدة الإسلام ارتباطا وثيقا؛ حيث يستحيل فصل أحدها عن الآخر.

ولقد حقق الصحب الكرام ﷺ بفضل البناء التربوي النبوي انتصارات عظيمة في الآفاق؛ وشهد لهم العدو قبل الصديق.

إن الأخلاق الرفيعة جزء مهم من العقيدة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق وقد ربى رسول الله ﷺ صحابته على مكارم الأخلاق بأساليب متنوعة.

فعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ»[2].

وسئل رسول الله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «تقوى الله، وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «الفم والفرج»[3].

---

(1) مسند أحمد بن حنبل، 381/2. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(2) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ح2003.

(3) سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، ح2004.

إن الأخلاق ليست شيئًا ثانويًا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح؛ لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب، إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي، أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك ؟

لقد تربى الصحابة ﵃ على أن العبادة نوع من الأخلاق؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق، فكانت أخلاق أخلاقهم ﵃ ربانية، باعثها الإيمان بالله، وحاديها الرجاء في الآخرة وغرضها رضوان الله ومثوبته.

وإلى هذه الحقيقة يشير جعفر بن أبي طالب ﵁ لما سأله النجاشي عن حقيقة الدين الذي فارقوا فيه قومهم: «أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما

أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث» [1].

والحاصل أن الأخلاق في البناء النبوي للشخصية المسلمة شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره، فالصلاة لها أخلاق، هي: الخشوع، والكلام له أخلاق، هي: الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق، هي: الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق، هي: التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق، هي: أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق، هي: العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق، هي: الانتصار أي رد العدوان، وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة.

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقي الذي رسمته آيات سورة الإسراء [23:38] مدحًا وذمًا؛ لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غرورًا وأنفة، أو الولوع بالمراء، والجدل بالباطل مغالبة وتطالعًا للظهور، أو تقليدًا وجمودًا على الإلف والعرف مع ضلاله وبهتانه،

[1] السيرة النبوية لابن هشام، 235/1.

وكلها –وأمثالها– أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعد ما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها[1].

ومن جانب آخر مرتبط بالأخلاق التميز الشكلي والمضموني عن مظهر الجاهلية والضلال ومخابر الفتنة، والتحلي القلبي والعقلي بالقيم الإيمانية والأخلاق الإحسانية، وزيال[2] عادات الكفار في العاديات والفكر والأسلوب والحياة والأخلاق التي تكتسب بها الشخصية الإسلامية المناعة ضد العدوى الحضارية المادية فتتقمص أشكالا حضارية تظهر على السطح ما في الباطن.

يقول الحق جل وعلا: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[3]، قال شيخ المفسرين الإمام الطبري:"لو تميز الذين في مشركي مكة من الرجال والنساء المؤمنات الذين لم تعلموهم منهم، ففارقوهم وخرجوا من بين أظهرهم، (...) لقتلنا من بقي بها بالسيف، أو لأهلكناهم ببعض ما يؤلمهم من عذابنا العاجل"[4].

أضف إليه أن تلك الأخلاق الإسلامية والخصال الحميدة التي تربت عليها الشخصية الإسلامية الأولى لها أصول تنبع منها، أجملها في هذه الأصول الأربعة:

1–العفة: وتتفرع عنها هذه الأخلاق والأوصاف: القناعة، والورع، والحياء، وغنى النفس...

---

(1) السيرة النبوية، الصلابي، ص115. بتصرف يسير.

(2) في لسان العرب: الزِّيال: التمييز والفراق (مادة: زيل، 316/11). يعني التميز عن عادات الكفار، وفراق تقاليدهم التي تناقض وتعارض أخلاق الإسلام وقيمه...

(3) سورة الفتح: من الآية25.

(4) جامع البيان عن تأويل القرآن، 7505/9.

2-الشجاعة: ويتفرع عنها: البذل والكرم، والسماحة، والعفو والصفح، والرحمة، والنجدة، والجهاد...

3-العدل: ويتفرع عنه: الصدق والبر، وحسن العشرة، والدفع بالتي هي أحسن، والتواضع، وسلامة الصدر...

4-الحكمة: ويتفرع عنها: تعزيز العلم بالعمل، والتؤدة، والتزكية...

وقد اجتمعت كل هذه الأصول في سيد الوجود ﷺ، وقام ببناء الشخصية الإسلامية عليها.

ومن هنا الأهمية بمكان القول أنه يجب ربط معنى البناء التربوي والسلوكي للشخصية المسلمة بالأخلاق؛ لأن كل بناء لا يثمر خُلقا لا يعول عليه.

ولذلك لا يمكن أن نتحدث عن البناء والتربية كمقام سلوكي ونحن نعاني فقرا مدقعا في الأخلاق واختلالا بينا في منظومة القيم.

5- الصدق والخروج عن خصال النفاق:

إن الصدق عتبة للتصفية، ومعيار القيم الُخلُقية، وهو ضرورة من ضرورات الاجتماع، بل هو أكبر أبواب السعادة للأفراد والجماعات[1].

فبالصدق يعرف المنافق من المخلص الصادق، والصدق خروج عن خصال النفاق. ولهذا تأسس البناء النبوي للشخصية الإسلامية على هذه الخَصلة الجامعة للأخلاق الحميدة؛ كالصدق في القول والعمل، ومع الخالق، ومع الخلق، والنية والإخلاص، والنصيحة، والأمانة والوفاء بالعهد، وسلامة

[1] أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعي، ص61.

القلب، والهجرة، والنصرة، والشجاعة، والتصديق بالغيب. هذه الأخلاق كلها تنضوي تحت لواء الصدق.

وبناء عليه؛ فالصدق برهان المحبة والإيمان، ولنا في المهاجرين إلى الحبشة والمهاجرين من بعدهم إلى المدينة أنموذجا كاملا معبرا عن حقيقة الصدق.

ولنا في سيرة أصحاب رسول اللهﷺ إسوة وقدوة، فآل ياسر رضوان الله عليم ابتلوا فصبروا، وبرهنوا على صدق إيمانهم ومحبتهم لنبيهم، وبذلوا أرواحهم في سبيل الله، وفي سيرة باقي الصحابة الذين عذبوا وقتلوا فما صدهم ذلك عن دين الله، ما بدلوا وما يتبدل الصادقون، ولا نقضوا عهدهم، وإنما ثبتوا وذكروا الله فكانوا هم المفلحين والفائزين.

والصدق منجاة، ونتائجه حميدة، وقد رأينا صدق أولئك المهاجرين إلى الحبشة لما سألهم النجاشي عن قولهم في المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، فبينوا موقف الإسلام في ذلك دون محاباة أو تمويه لبطارقة النجاشي وللنصرانية السائدة في الحبشة آنذاك التي تخالف عقيدة الإسلام في ذلك، بل قالوا كلمة الحق، ولم يخافوا في الله لومة لائم، صدقوا الله فصدقهم الله، فآمنهم من مكر الماكرين وكيد الكائدين، وأحسن لهم ثوابهم في الدنيا والآخرة.

وهذا سيدنا أبو بكر ﷺ لُقِّب بالصِّدِّيق لصدقه وتصديقه لمن جاء بالصدق ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ[1] أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

وهذا سيدنا أبو سلمة ﷺ يهاجر إلى المدينة رغم كل العقبات الكأداء التي وضعها المشركون في طريقه، تاركا وراءه زوجه وابنه، تحكي لنا أم سلمة قصة هجرته، نوردها هنا لما فيها من صــور رائعة لتلك التربية النبوية لأولئك الرجال الذين تربوا على بذل النفس والنفيس في سبيل نصرة الإسلام ولو كانوا أبناءهم أو أزواجهم، فعن أم سلمة –زوج النبي ﷺ– رضي الله عنها، قالت:« لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره، ثم حملني عليه وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة. قالت ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح فما

---

[1] أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره ، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره. تفسير السعدي، 724/1.
وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَة: "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ مُحَمَّد، وَصَدَّقَ بِهِ أَبُو بَكْر. فتح الباري، 437/8.
[2] سورة الزمر :33.

أزال أبكي، حتى أمسى سنة أو قريبا منها»[1]، ثم بعد ذلك تمكنت من الهجرة بابنها والتحقت بزوجها. فكانت تقول: «والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة»[2].

أضف إلى ذلك كل من هاجر إلى المدينة، فكانت الهجرة تمحيصا واختبارا لصدق إيمانهم وحبهم لنبيهم ونصرتهم لدينهم، وبذلهم الغالي والنفيس في سبيل عقيدتهم.

وصدق الحق جل ذكره الذي قال في أولئك الرجال الذين تربوا في حضن الصحبة النبوية، وارتشفوا من أصلها الصدق والإخلاص: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[3]. رجال صدقوا في حب الله وحب رسوله ﷺ، وتلبسوا بأخلاق الإسلام، وبذلوا أرواحهم وأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وآثروا إخوانهم على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة.

---

(1) سيرة ابن هشام، 2/341-342.

(2) سيرة ابن هشام، 2/342.

(3) سورة الأحزاب:23.

6-البذل والعطاء والاقتصاد(1):

أ)- البذل والعطاء:

البذل ؛ عطاء وجود وسماحة وكرم ومساعدة وخدمة وفُتُوَّة... و"البذل على وجهين:

أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال، والآخر: ما كان عن طلب وسؤال. فأما المبتدئ به فهو أطبعهما سخاءً، وأشرفهما عطاءً"[2].

والبذل يجمع كل معاني الإنفاق-(كالزكاة والصدقة، والكرم والنفقة في سبيل الله، وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين، وإطعام الطعام، وقسمة المال)- التي وردت في القرآن الكريم؛ إذ الإنفاق شرط أساس في كمال الإيمان، وعليه، فإن البذل هو البرهان الأول للصدق، وله أثر كبير في بناء الشخصية الإسلامية وتطهير نفسها من آفات الشح والبخل والأثرة وغير ذلك...؛ ولذلك تلقى الصحابة ﷺ تربية راقية على البذل والعطاء والكرم والسخاء والإحسان، أزالت من نفوسهم شح النفس الفردية وضنها، فتخلصوا من تلك الأمراض كلها، وبذلوا أموالهم في سبيل إعزاز الدين، وإعلاء كلمة الحق.

فهذا سيدنا أبو بكر ﷺ حرر العبيد الذين لهبت ظهور هم عصا الابتلاء والفتنة، قال الحافظ ابن سيد الناس -رحمه الله-:وأسرف بنو جُمح على بلال

---

(1) البَذْلُ من الابتذال ضد الصيانة أو هو الطرح، وقد طرح رسول الله ﷺ وطرح الصحابة ﷺأموالهم وأهلهم وديارهم، ورحلوا بإيمانهم إلى المدينة ومن قبل إلى الحبشة.

(2) أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، ص189.

بالأذى والعذاب، فاشتراه أبو بكر الصديق منهم واشترى أمَّه حمامة، فأعتقهما[1]، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب بلال سابعهم، عامر بن فهيرة، وأم عُبيس، وزنّيرة، وأعتق النهدية وبنتها، وجارية بني مؤمل[2].

فقال أبو قحافة لأبي بكر: يا بني أراك تعتق قوما ضعافا، فلو أعتقت قوما جلداء يمنعوك، فقال: يا أبت إني أريد ما أريد. [يعني: أريد اللهﷻ]، فقيل فيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [3]،إلى آخر السورة[4].

كما بذل سيدنا أبو بكر الصديقؓ كل ماله لما هاجر النبيﷺ إلى المدينة، قال الحافظ ابن سيد الناس –رحمه الله–:وخرج أبو بكر بماله كله، وهو فيما قيل خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم[5].

عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِؓقال: « أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟». قُلْتُ:مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا

(1) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 224/1.

(2) سيرة ابن هشام، 224/1، باختصار.

(3) سورة اليل: 17-20.

(4) عيون الأثر (تحقيق:الخطراوي ومتو)، 203/1.

(5) عيون الأثر،303/1.

عِنْدَهُ فَقَالَ: ﴿ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟﴾. قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ وَاللَّهِ لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا»[1] .

كانوا رضوان الله عليهم يتسابقون إلى الخيرات، وإلى البذل في سبيل الله، لا إلى حطام الدنيا الفاني، ونعيمها الزائل.

وهذا سيدنا عمر ﷺ ينفق نصف ماله في سبيل الله، وذاك سيدنا عثمان المعطاء يجهز جيش العسرة، مباشرة لما سمع نداء الحبيب الأعظم ﷺ: «﴿مَنْ يُجَهِّزْ هَؤُلاَءِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ﴾. يَعْنِى جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَجَهَّزْتُهُمْ حَتَّى لَمْ يَفْقِدُوا عِقَالاً وَلاَ خِطَامًا»[2]. سارع إلى رضوان الله ومغفرته وفضله.

أما المهاجرون إلى الحبشة وإلى المدينة فقد تركوا أموالهم وأهلهم ورحلوا بإيمانهم ومحبتهم لنبيهم ﷺ، وجعلوا أنفسهم وأموالهم وقفا لله.

فهذا سيدنا صهيب ﷺ لما اعترضه كفار قريش وأرادوا أن يمنعوه من الهجرة إلى المدينة -لما أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها-، قالوا له: أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك؛ فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ربح صهيب ربح صهيب﴾[3].

---

[1] سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب أبي بكر، ح3684. قَالَ أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[2] سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيا، ح3182.

[3] سيرة ابن هشام، 348/2.

وهذا سيدنا أبو طلحة الأنصاري ﷺ أحد النقباء الاثنى عشر ينفق أحب أمواله، عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ[1] وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وإني أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»[3].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً أَتَى النبيﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ، فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ – أَوْ

---

[1] بيرحاء: هو اسم مال وموضع بالمدينة. لسان العرب، مادة: برح.

[2] سورة آل عمران: 92.

[3] صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، ح1392.

عَجِبَ –مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]»[2].

وهذا سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان لا يسمع آية من كتاب الله تعالى تدعو إلى البذل في سبيل الله، إلا وسارع إلى تنفيذها، منفقا في سبيل الله الغالي والنفيس، عن نافع: عن ابن عمر أنه كان لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله عز وجل قال: وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا[3]، وعنه أيضا: ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان[4].

وهذا سيدنا أبو لبابة لما تاب الله عليه بذل ثلث ماله في سبيل الله عن السائب بن أبي لبابة عن أبيه قال: «لما تاب الله على أبي لبابة قال أبو لبابة: جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله، إني أهجر دار قومي الذي أصبت بها الذنب، وأنخلع من مالي كله صدقة لله عز وجل ولرسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا لبابة، يجزئ عنك الثلث» قال: فتصدقت بالثلث»[5].

وبفضل ذلك البناء النبوي للشخصية المسلمة الأولى على نور سنن الله جبلت نفوسهم على الكفاف والمواساة، والإنفاق في سبيل الله. فكان الإيثار

---

[1] سورة الحشر: 9.

[2] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ح3587.

[3] صفة الصفوة، 220/1.

[4] المرجع نفسه.

[5] المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر أبي لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، 733/3.

دأبهم، والأخوة رأس مالهم، اقتحموا عقبة الدنيا والعوائق النفسية من ضن وشح وتحاســـد وتنافس على حطام الدنيا الفاني، فطردوا الفقر أخا الكفر، لأن الفقر والكفر متلازمان.

والحق أن "إعلان «الإخاء» بين أفراد مجتمع ما لا يوجب التكافل بينهم في الطعام والشراب وحاجيات الجسم فحسب، بل في كل حاجة من حاجيات الحياة "[1]، وهذا ما تحقق لما هاجر المســـلمون إلى المدينة، أغدق عليهم إخوانهم الأنصار بالخيرات، فكانوا يتوارثون بينهم، حتى نزلت آية التوارث التي خصته بالعصبة، لكن التآزر والمواساة والتعاون استمر بين المسلمين، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺقَالَ: قَالَتِ الأَنْصَارُ للنبيﷺ:« اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ. قَالَ: ﴿ لاَ ﴾. فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمَئُونَةَ وَنُشْرِكُكُمْ في الثَّمَرَةِ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا»[2].

وعن أنس ﷺ قال: «قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحســن مواســاة في قليل، ولا أحســن بذلا في كثير، لقد كَفونا المؤونة وأشــركونا في المهنأ، حتى لقد حســبنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: ﴿لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز و جل لهم﴾»[3].

وصــور البذل عند هؤلاء الرجال العظماء لا تنتهي، لأنهم تربوا في حضــن الصحبة المصطفوية المحمدية.

---

(1) مشكلات وحلول: الفقر الجوع الحرمان، مصطفى السباعي، ص154.

(2) صـــحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخل وتشـــركني وغيره وتشركني في الثمرة، ح2200.

(3) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، 361/20.

فانظر إلى أثر التربية على البذل والعطاء في بناء الشخصية الإسلامية التي تسير سويا على صراط مستقيم.

ب)-الاقتصاد:

إن من صور البذل الاقتصاد أي إقامة الوجه لله تعالى وتجديد القصد إليه والكفاية المادية، لذلك اعتنى به سيدنا رسول الله ﷺ عناية كبيرة، وجعله أحد عناصر بناء الشخصية الإسلامية، فعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «﴿أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله ولم تساعده الأيام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقدم على الله تعالى بغير حجة﴾»[1].

فالأصل في الخسران انتقاص رأس المال، وقد استعمله النبي ﷺ فيما هو أعم من ذلك كالإيمان والعبادة وغير ذلك، وهو بهذا يوجه الأنظار إلى اعتبار الخسارة فيما هو أغلى من المال وأعلى من الجاه.

والمعنى: "أشد الناس خسارة رجل أتعب نفسه بالكد والجهد في السعي لبلوغ آماله، ولكن الأيام لم تساعده على حصول مطلوبه من المال والمناصب والجاه ونحوها، بل عاكسته وخذلته، فهو لا يزال يتشبث بالطمع الفارغ والرجاء الكاذب، ويتمنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، فخرج من الدنيا بالموت بغير زاد يوصله إلى المعاد وينفعه يوم يقوم الأشهاد ويفصل بين العباد؛ لأن خير الزاد إلى الآخرة اتقاء القبائح، وهذا قد تلطخ بأقذارها القبيحة الخبيثة الروائح فهو مهلك لنفسه باسترسال الأمل، وهجرة العمل، حتى تتابعت على قلبه

---

[1] أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، ح1250. قال الألباني: ضعيف. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، ص125.

ظلمات الغفلة، وغلب عليه رين القسوة، ولم يسعفه المقدور بنيل مرامه من ذلك الحطام الفاني، فلم يزل مغمورا مقهورا مغموما إلى أن فرق ملك الموت بينه وبين آماله، وكل جارحة منه متعلقة بالدنيا فاتته، فهي تجذبه إلى الآخرة التي لا يريدها، وقدم على الله تعالى بغير حجة أو معذرة يعتذر بها، وبرهان يتمسك به على تفريطه بتضييعه عمره النفيس في طلب شيء خبيث خسيسي وإعراضه عن عبادة ربه التي إنما خلق لأجلها"[1].

ولهذا كان السير القاصد على عهد رسول الله ﷺ وعهد خلفائه الراشدين منسجما. المؤمن يبغي الجنة ورضى ربه ووجهه، فيجد من يصبر معهم، ومن يساعدونه على زاد السفر، ومن يصحبونه إلى الله، في الحياة اليومية بتيسير الطعام والحاجيات وتبادل المصالح، وفي ساحة الوغى بالتراص أمام العدو، والتحريض المتبادل على الوفاء لله بالعهد.

هكذا كان النبي ﷺ يصنع الشخصية المسلمة الأولى ويربيها على استجماع القوى نحو تجديد القصد إلى الله تعالى وللآخرة، وتصحيح الوجهة إليه، والإعراض عن غرور الدنيا ونعيمها الزائل، وشهواتها الفانية، فكان سيرها حثيثا، وتوسطها رفيقا، ملكت الدنيا ولم تملكها ولم تُزِغْها عن الآخرة، اتخذت أسباب الكسب الحلال، وأنفقت في حلال.

هذا جانب، والجانب الآخر في الاقتصاد هو البعد عن تبذير الجاهلين، والكفاية المادية، وذلك بأن صحابة سيدنا رسول ﷺ ما كانوا رجال كسل وخمول، بل تربوا على العمل الجاد، والاهتمام بالأعمال المادية من صناعة ومكاسب،

---

[1] محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد المالكي الحسني، ص233.

حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، ولنا أنموذج واضـــح لاهتمام الصـــحابة ﷺ بالكفاية المادية في المهاجرين الأوائل إلى أرض الحبشـــة؛ فلم يكونوا عالة على غيرهم في ذلك المجتمع، بل كانوا يكســـبون ويمارســـون ما تعلموه من المهن، وخاصـــــة أنه كان من بينهم ذو النورين عثمان التقي الطاهر، وهو مع ذلك التاجر الماهر، وقد خرج ومعه بعض ماله، ولم يثبت في التاريخ أنهم كانوا في ضيافة النجاشي، لأنهم كانوا يتزايدون في الهجرة ولا ينقصون، وإذا كان لابد من فرض في هذا، فهو أننا نتصـــور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاســـبة التي تدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير.

و"نتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا:

أولهما–أن يكونوا قد قاموا بما يكسـبهم القوت، ولا يعيشـون كلاًّ على غيرهم فليس ذلك من مكارم الأخلاق في الإسلام.

ثانيهما– أن نفرض التعاون الكامل بينهم، يُعين غنيهم فقيرهم والقادر منهم العاجزَ، وإذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبيﷺ. فإن التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضـــت نفســها في أرض الحبشــة بحكم الاغتراب أولا، وبحكم الحاجة إليها ثانيا، وبحكم الخلق الإســلامي الذي يوجب التراحم والتعاطف ثالثا، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان في مكة من حماية ضـعفاء المسـلمين من أقويائهم، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين وإعتاقهم من غير مَنّ ولا أذى"[1].

---

[1] ينظر: خاتم النبيين ﷺ، 270/1.

أضف إليه أن الاقتصاد يدخل في إعداد القوة، وهو عامل قوي من عوامل قوة الدعوة والجهاد، وهو من أسباب التمكين في الأرض، ولهذا اهتم الإسلام بالموارد المالية وكل ما له علاقة بالاقتصاد كطرق الكسب المشروع؛ من بيوع ووصايا وميراث ووقف وهبات...، وبين كذلك الطرق غير المشروعة وحرمها كالربا والغش والاحتكار والسرقة والسرف والترف...قال الحق جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

وعلى ذلك، فقد حض الإسلام على التنويع في أساليب الإنتاج، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ[2]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[3]. في هذا الحديث النبوي الشريف "إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها، وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبَّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سبيل الله وما يتطلبه

---

[1] سورة البقرة:267.

[2] بيع العينة: هو أن يستقرض رجل من تاجر شيئا فلا يقرضه قرضا حسنا بل يعطيه عينا، ويبيعها من المستقرض بأكثر من القيمة، سمي بها لأنها إعراض عن الدين إلى العين. التعريفات، ص53. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار، محمد بن علي الشوكاني، 228/5.

[3] سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ح3462.

من إعداد القوة يُعرض الأمة لخطر الذل والاستعمار، وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لابد أن يتوافر في الأمة"[1].

وهنا لابد من الإشارة إلى تلك القصة العجيبة التي تبين لنا جهاد أولئك الرجال وحبهم للجد والاجتهاد، وعدم ركونهم إلى الخمول والراحة، ليحققوا الكفاية المادية لأمتهم، ويرفعوا اقتصادهم، فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: «قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَآخَى النبي ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًى، فقال لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أُقَاسِمُكَ مالي نصفين، وَأُزَوِّجُكَ. قَالَ: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّونِي على السوق. فما رجع حتى اسْتَفْضَلَ[2] أَقِطًا وَسَمْنًا» [3].

في ضوء ما تقدم؛ فقد كان الصحابة رجال عمل وكسب، كان منهم الصانع والتاجر والفلاح والراعي... أتقنوا أعمالهم...، والتزموا بشريعتهم التي حذرتهم من التبذير والتطاول في زخرف الدنيا، وحببتهم في التنافس والتسارع في الخيرات، وأمرتهم بالزكاة واكتساب الحلال، وتنميته، والمحافظة عليه، وإنفاقه في سبله المشروعة، وبذلوا جهدهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي لمجتمعهم؛ الغني منهم يواسي الفقير، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، وقدم الأنصار مساعدات اقتصادية لإخوانهم المهاجرين، فحققوا بذلك إنعاشا اقتصاديا مستقلا بذاته،

---

(1) فقه النصر والتمكين، ص317.

(2) استفضل: ربح.

(3) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ... ح1944.

وحازوا النصــــر في معركة الإنتاج، متحررة من التبعية المادية، ومن كل قيود إلا قيد الإسلام.

فلم يكونوا رجال كسل وخلود إلى الأرض، فعن البراء رضي الله عنه قال : «ليس كلنا سمع حديث رسول الله ﷺ، كانت لنا ضيعة وأشغال، ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذ، فيحدث الشاهد الغائب»[1].

كان الإنتاج دأبهم، حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، وحتى تكون دولتهم نموذجا ناجحا. عن عقبة بن عامر قال: «كنا مع رسول الله –ﷺ– خدام أنفسنا نتناوب الرعاية رعاية إبلنا...»[2].

هكذا أثمرت التربية على الاقتصاد شخصية مسلمة واثقة في نفسها صالحة في مجتمعها ونافعة لأمتها.

7- العلم النافع والتفقه في الدين:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية أشادا بالعلم وجعلاه من أعظم القربات، وأرفع الحسنات، وأكدا أنه الطريق الأرحب لرفعة الدنيا وعز الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

ولكن العلم إذا لم يدل على الله ويوصل إليه، ويحسن سلوك الإنسان، ويضبط حياته بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ويدفع الناس في طريق الخير

---

[1] المستدرك للحاكم، كتاب العلم، فصل في توقير العالم، 216/1.

[2] سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب ما يقول الرجل إذا توضأ، ح169.

[3] سورة المجادلة: من الآية11.

والبذل والعطاء... فما قيمته؟ إن العلم النافع هو الذي يضيف للحياة نفعا وفائدة للخلائق والكائنات، وليس هو القراءة والكتابة فحسب، إنه ترق دائم وإضافة خيرة مستمرة، إنه عمارة للأرض، وعبادة لله تعالى...

فإذا لم يُصلح العلم الحياة ويرقيها، وينظمها ويجملها ويجعلها سهلة ميسرة فما قيمة هذا العلم؟!

فإذا لم ينفع العلم ولم يتأثر الإنسان به فَقَدَ القيمة عند صاحبه فلم يعد يتأثر به القلب، ولم يكبح جماح النفس ويردها عن نزواتها ونوازعها فيصبح جراء ذلك عمل الإنسان صورا لا يمتد في الأرض، ولا يصعد إلى السماء؛ ولهذا فقضية العلم جد خطيرة في حياة الأمم، وكم مر على هذه الأرض من أمم أصبح العلم فيها مظهرا دون جوهر، وهيكلا لا روح فيه، فانهارت الأمم وأصبحت أثرا بعد حين، ولهذا لابد أن يكون العلم نافعا وثيقا بصلاح الإنسان في معاشه ومعاده، في نفسه وأسرته ومجتمعه، ولابد من تأطيره بإطار سديد، وتوجيه قويم رشيد[1].

إن العلم هو أمضى سلاح بعد الإيمان، وهو السراج المضيء للطريق، ودليل العمل الصالح، والعلم ما قربنا إلى الله تعالى وبصرنا بمصيرنا إليه، ورسخ أقدامنا في الشريعة الغراء، ودلنا على واجبنا ورسالتنا في هذه الحياة، وهو نور في قلب من أيده الله بمدده وفتح له بصيرته، ثم تأتي العلوم الكونية تباعا لأنها تدعونا إلى التدبر في ملكوت الله؛ لكون العلوم لا تقتصر على علوم

---

[1] ينظر: "عقبات في طريق البناء"، مقال لفاروق حمادة، مجلة بصائر الرباط، ص25-27، باختصار.

الشـــريعة فقط، بل إن الله تبارك وتعالى قد قدم قراءة الكون (الكتاب المنظور) على قراءة كتابه المسطور (القرآن الكريم).

وليس العلم ما انتكســت فيه الإرادة، وقل الفهم، وتكدســت فيه النقول، إنما العلم النافع الذي تربى عليه الصـحابة ﷺ في المدرسـة النبوية، هو ذلك العلم الذي يبني أمة وينظم المجتمع ويقيم العدل فيه، ويعيد الوعي في عقل المؤمن، ويعيد كل معرفة كونية إلى منبعها وأصلها بعلم الحق...

ولأهمية العلم في بناء الشخصية الإسلامية تلقى الصحابة عليهم من الله الرضـوان التربية عليه من المصــحوب الأعظم والحبيب الأكرم ﷺ؛ ولذلك لما أسلم أولئك النفر من الخزرج وبايعوا رسول الله ﷺ –بيعة العقبة الأولى– بعث معهم مصعب بن عمير ﷺ، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

وبعث سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وسيدنا أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن ليعلما الناس الإسلام، ويُفقهاهم في الدين،وأوصاهما بسنة التدرج والتيسير. فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِى بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النبي ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «يَسِّـرَا وَلاَ تُعَسِّـرَا، وَبَشِّـرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا» [1].

ولما دخلت فاطمة بنت الخطاب وبعلها سعيد بن زيد –رضـي الله عنهما– في الإسلام كان سيدنا خباب يقرئهما القرآن[2].

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، ح 2873.

[2] ينظر: عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 219/1. وسيرة ابن هشام، 240/1.

وذلك يدل على أهمية العلم والمعلم في بناء الشخصية الإسلامية، فالله يعبد بعلم، والاقتداء بنبيه الكريم يكون بعلم، وتطبيق شـــريعته يكون بعلم، ومعرفة الصدق من النفاق والبذل والعطاء من البخل والترف يكون بالعلم..

وفي العقبة الثانية لما بايع الأنصار النبي ﷺ قال لهم :﴿ أخرجوا إلي منكم اثني عشـــر نقيبا، يكونون على قومهم بما فيهم﴾. فأخرجوا اثني عشـــر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس[1].

فقال النبي ﷺ للنقباء:﴿ أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي﴾، قالوا:نعم[2].

فهؤلاء النقباء كفلاء، في تعليم أصحابهم، وتوجيههم، ومساعدتهم، والاهتمام بشؤونهم، وقضاء حوائجهم...

ويحكي عبادة بن الصـــامت رضي الله عنه عن أهل الصـــفة[3] الذين تفرغوا للعلم، واعتكفوا في المسجد النبوي للعبادة وقراءة القرآن ومدارسته، يقول رضي الله عنه: « علمت ناسا من أهل الصفة القرآن والكتابة، فأهدى إلي رجل منهم قوسا، فقلت ليست بمال، وأرمي عنها في سبيل الله. فسألت رسول الله ﷺ عنها فقال: ﴿ إن سرك

---

(1) ينظر: تاريخ الطبري، 578/1. الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص31. سيرة ابن هشام، 321/1.

(2) تاريخ الطبري، 578/1.

(3) الصفة: مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحســـب من يتزوج منهم أو يموت أو يســـافر. فتح الباري، 666/6.

أن تطوق بها طوقا من نار فاقبلها ﷺ»[1]، وعنه أيضا قال: « كان رسول الله ﷺ يُشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلا وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن،...»[2].

وقد كان هدي النبي ﷺ في التعليم: بتوجيه الهمم والعزائم إلى عوالي الأمور، ومعالي المقاصد، وأن يكون المؤمن عالي الرأس في غير كبر، وعزيز النفس في غير عجب، وأصيل الرأي في غير أنفة[3].

كما اعتنى ﷺ بتعليم القرآن عناية عظيمة خصوصا بالنسبة للصبيان الصغار، ولا شك أن في ذلك فائدة كبرى وهي لأجل أن يتوجه الصغار إلى اعتقاد أن الله تعالى هو ربهم، وأن هذا كلامه تعالى، ولأجل أن تسري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم، ولأجل أن يتلقن الطفل عقائد القرآن منذ الصغر، وأن ينشأ ويشب على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء هن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على منهاجه..

وقد كان الصحابة ﷺ أول من قرأ في مدرسة القرآن وتربى بهديه واهتدى بتربيته واتخذه هجيره، فقرؤوه وتعلموه وعلموه، وقد كان النبي ﷺ يعلمهم مع القرآن آداب القرآن الكريم ليعرف حقه فيعظمه ويحترمه.

---

(1) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الأجر على تعلم القرآن، ح257، قال الألباني: صحيح، سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في كسب المعلم، ح3416.

(2) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت ﷺ، 426/37.

(3) الذخائر المحمدية، ص252.

إضافة إلى ذلك، ومما كان يعتني به في حلقة العلم النبوية تفسير كتاب الله العظيم، فقد كان المصطفى ﷺ يفسر لهم بنفسه بعض آيات القرآن الكريم.

كما اعتنى ﷺ في تعليم أصحابه بذكر الوقائع التاريخية، وسنن الله في الأمم الغابرة، وهذه السنة المحمودة أعظم عامل لتشويق النفوس إلى مجالس العلم والتذكير وإقبالهم عليها برغبة وتعلق[1].

ومن الطرائق التي سلكها ﷺ في البناء التربوي والعلمي لأصحابه ضرب الأمثال، فكان يقرب المسائل بالأمثال، والمثل من أوضح السبل وأظهرها في تصوير الحقيقة وتوضيحها وتقريبها إلى ذهن السامع[2].

وهنا لابد أن نذكر حديثا رائعا نلمح منه وسيلة من وسائل البناء التربوي والتعليمي للصحابة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَال: «خَطَّ النبي ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا في الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الذي في الْوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الذي في الْوَسَطِ وَقَالَ: ﴿هَذَا الإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الذي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا﴾»[3].

وأما الكتابة فقد اعتنى بها اعتناء كبيرا؛ ولذلك فإن تطوير فن القراءة والكتابة وترويجهما وإشاعتهما، وإيلاءهما اهتماما كبيرا مع نشر دعوة الإسلام إنما يعتبر من أهم البركات الدنيوية التي أفاض بها الإسلام على الناس جميعا، وهو

---

(1) ينظر: محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد علوي المالكي، ص218-221.

(2) نفسه، ص241.

(3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، ح6054.

الجميل العظيم والمن الكبير الذي أسداه الإسلام إلى البشرية جمعاء. وخير دليل على ذلك ما حدث يوم بدر، حيث أمر الرسول ﷺ للأسرى الذين لم يجدوا ما يفتدون به أنفسهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، كما أن أصحاب الصُّفة الذين بلغ عددهم مئة شخص كانوا يركزون على جانب القراءة والكتابة ويتعلمونها، وكانوا يتعلمون الدين والأحكام الشرعية"[1]. ويكفينا فخرا أن أول ما نزل على نبينا ﷺ من القرآن قوله سبحا ونتعالى:﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[2].

علاوة على أن "أسمى الطرق التربوية النبوية أنه ﷺ كان يولي السائل عناية ورعاية خاصة وتقديرا واحتراما وإكراما وإعظاما، فيكسبه بذلك ثقة كبيرة وشعورا بالطمأنينة الكاملة بحيث لا تمنعه هيبة النبي العلمية من إلقاء السؤال على أي كيفية، ولا تصده رتبته ﷺ عن التعبير بما في مكنونات الضمير ملقيا بقياده ساعيا في طلب رشاده، وأنظار حضرة المربي الكامل ﷺ تحوطه من كل جانب، وتحميه من كل منتقد أو عائب"[3].

واختلفت وسائل التعليم النبوية، فقد يكون التعليم عن طريق سؤال يوجه للنبي ﷺ فيجيبه، أو يسألهم هو لا ليجيبوه، بل ليشوق السامع ليصغي بقلبه وأذنه إلى الإجابة، كما كان يخاطب الناس على قدر ما تستوعبه عقولهم وأفهامهم، وإذا تكلم أعاد الكلام ثلاثا ليفهمه الجميع وليستوعبوه.

واهتم النبي ﷺ بتعليم المرأة كما اهتم بتعليم الرجل، وكان من الصحابيات من يحضرن مجالس العلم في المسجد النبوي، حرصا منهن على تلقي العلم من

---

(1) سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ص56.

(2) سورة العلق:1.

(3) محمد ﷺ الإنسان الكامل، ص228.

فيه سيد الوجود ﷺ، أشهرهن أم المؤمنين النقية الجليلة الفقيهة العالمة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، التي كانت تفتي الصحابة وتجيبهم على أسئلتهم، واشتهرت برواية حظ وافر من الأحاديث النبوية الشريفة، إلى غير ذلك من الصحابيات اللائي اشتهرن بالعلم وأخرج لهن أصحاب الحديث في كتبهم وكذلك أصحاب المغازي والسير.

ومما سبق ذكره يتضح لنا جليا المنهاج النبوي في البناء العلمي لشخصية الإسلامية، ذلك المنهاج الذي لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا عني بها، وأولاه اهتمامه، و اتخذ في ذلك طرقا ووسائل متنوعة، على نورها يتم إرساء أسس معرفة صحيحة تتوج بالعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ذلك العمل الذي أسهم في بناء ذلك المجتمع العمراني الأخوي الراقي.

وبهذا وبفضل المحبة النبوية تعلَّم المسلمون، وتسابقوا إلى طلب العلم، حتى انتشر العلم انتشارا واسعا، فقام صرح ذلك المجتمع الإسلامي الخالد الذي تلقى توجيهاته من معين النبوة، وتشرب التربية من منبعها النبوي، فكانت نتيجة ذلك الفتح المبين والظهور في الأرض، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس، وأنموذجا للشخصية الإسلامية المتكاملة.

---

[1] سورة التوبة:105.

8-العمل قرين العلم:

إن للعمل الصالح أثرا كبيرا في بناء الإنسان، يتجلى ذلك في صناعة شخصية صالحة في سلوكها وتصرفاتها، وفي أسرتها ومجتمعها، شخصية تسعى إلى الخير وتحث عليه، ولذلك اهتم النبي ﷺ بالعمل[1] اهتماما بالغا؛ لأن الإسلام يربط بشكل مستمر بين العلم والعمل، وهذا العمل يعني كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته ويقصد من ورائها وجه الله تعالى ونفع الناس ودفع الأذى عنهم، وجلب المصالح والمنافع لذاته ولأهله ولكل من هو مسؤول عنه. وكل عمل يشمل على ذلك فإنه يندرج تحت مفهومي العبادة والتقوى[2].

ولقد حض النبي ﷺ أصحابه على العمل الصالح[3]، فاستجابوا له، لأنهم يتلقون التربية من المصحوب الأعظمﷺ، وهذه سنة الله في التابع والمتبوع، والصاحب والمصحوب، فما كانوا رجال تأمل وركون إلى الراحة والكسل، بل كانوا رجال عمل دائب مستمر منضبط منتج منظم.

(1) أي العمل بنوعيه: العمل العبادي بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، والعمل المنضبط المنتج المنظم الدائب.

(2) ينظر: "العمل والتربية الحياتية من منظور إسلامي"، مقال لبركات محمد مراد، المنشور بمجلة البيان، السنة العدد 231، السنة21، ذو القعدة 1427هـ-ديسمبر2006م، [38-44]، ص39.

(3) العمل الصالح: التكسب، طلب الحلال، العدل، إماطة الأذى عن الطريق، التواصي بالحق والصبر...

وإن جوهر الأمر، "أن العمل يحيي القلوب بالمعرفة واليقظة الدافعة"[1]، لكن العمل الذي يحيي القلوب هو ذلك العمل البعيد عن الشـــرة والحماس والحركة الفارغة من اللب، والسباحة في سماء الأحلام، والقفز فوق الواقع.

إن العمل الذي يباركه الله تعالى ويؤيد عباده المؤمنين بالغيب به، ويبارك لهم في أرزاقهم، والذي ربى النبي ﷺ عليه ذلك الجيل الخالد ﭫ، هو ذلك العمل الذي يكون التدرج حليفه، والتعاون قاعدته، وتحمل المســؤولية وإســعاد الأمة حافزه، والإخلاص لله تعالى روحه، والتؤدة والصبر وتحمل الأذى جماله.

9-التؤدة أو الصبر وتحمل الأذى:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرْجِسَ الْمُزَنِي ﭬ أَنَّ النبيﷺقَال: «السَّمْتُ[2] الْحَسَنُ، وَالتُّؤَدَةُ [3] وَالِاقْتِصَادُ[4] جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» [5].

---

[1] جدد حياتك، محمد الغزالي، ص57.

[2] السمت هو: الطريق و (السَّمْتُ) القصد والسكينة والوقار وسمت الرجل سمتا من باب قتل إذا كان ذا وقار وهو حسن (السَّمْتِ) أي الهيئة (السَّمْتِ) وهو القصد والهدى والاستقامة وكلّ داعٍ بخير، وهو أيضاً هَيْئَة أهل الخَيْر. المصباح المنير، كتاب السين، مادة: سمت، مختار الصحاح، باب السين، مادة:سمت، ص141.

[3] التُّؤَدةُ: وهي التأني والتمهل. مختار الصحاح، باب الواو، مادة:وأد، ص308.

[4] الاقتصـاد: (قَصَدَ) في الأمر (قَصْداً) توسط و طلب الأَسَدَّ ولم يجاوز الحدّ. المصباح المنير، كتاب القاف، مادة:قصد، ص260.

[5] ســنن الترمذي، كتاب البر والصــلة، باب ما جاء في التأني والعجلة، ح2010، قال أبو عيسى:"وَفِى الْبَابِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ". وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. كتاب الزُّهد، وكيع بن الجراح، ص-64-65.

إن "التؤدة" في التعبير النبوي السابق تعني الصبر وتحمل الأذى، وهي خَصلة امتلاك النفس وطولُ النفَس، والصبر على طول الطريق ومشاقه، وتحمّل الأذى في سبيل الله، وهي الأناة والرزانة والتريث حتى تنضج الثمار، وتتحقق الأهداف والغايات.

وبكلام آخر فإن التؤدة معناها في حق الفرد أخلاق تملك النفس والصبر والمصابرة والمثابرة والتثبت والمسؤولية، وهي أخلاق تعوزنا تماما. أما في حق الجماعة المؤمنة فالتؤدة هي البناء الرصين على أسس ثابتة ودعائم متينة، وعلى وعي تام بالمبادئ والأهداف والمقاصد والغايات. بعيدا عن الارتجالات العنترية، والأماني المعسولة، والفشل الدائم.

والتؤدة أساساً وبالمعنى الأوسع هي الرفق في مقابل العنف، وهي الرفق والأناة والحلم ورحمة الخلق، والتواضع... وتتضح أهمية هذا العنصر في بناء الشخصية الإسلامية في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن سيدنا خباب ﵁ قال:" « أَتَيْتُ النبي ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَة، وَهْوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: ﴿ لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ »﴾ [1].

وعليه، فرُغم كل الأذى الذي كان ينزله كفار قريش بالمؤمنين "لم ينههم من عزمهم، ولم يضعف أنفسهم، فهذا عبد الله بن مسعود يضربونه، فيستمر في

[1] صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ح3639.

قراءته، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ما شاء الله تعالى أن يبلغه غير ملق اهتماما إلى ضربهم"[1].

أما آل ياسر وهو البيت الذي أسلم كل أفراده، "وآمن بالله تعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق، فرأس الأسرة ياسر، وهو أبو عمار عُذِّب، وأمه سمية عُذِبت، وذهب الفجور بأبي جهل أن يضربها برمح في بطنها فماتت، فكانت أول شهيد في الإسلام مات فداء لدينه"[2].

وتحمل عمار بن ياسر ﵁ أشد الأذى والعذاب، فما وهن وما استسلم لجحافل الشرك، بل رضي وقلبه مطمئن بقضاء الله وقدره، وإن نطق بكلمة لما بالغوا في تعذيبه وإيذائه، لكن قلبه مطمئن بالإيمان.

وتحمل سيدنا مصعب بن عمير ﵁ الذي كان يكتم إسلامه، فلما علم به قومه حبسوه فلم يزل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم خرج في الهجرة الثانية. وكان من أنعم الناس عيشا قبل إسلامه، فلما أسلم زهد في الدنيا فتحسف[3] جلده تحسف الحية[4].

---

(1) خاتم النبيين ﷺ، 445/1.

(2) خاتم النبيين ﷺ، 478/1.

(3) تَحَسَّفَ الجِلْدُ: تقشّر. لسان العرب، مادة: حسف. 47/9.

(4) ينظر: صفة الصفوة، 151/1.

كان ﷺ قبل أن يدخل الإسلام من أنعم قريش عيشا، وأعطرهم، وكانت أمه شديدة الكلف به وكان يبيت وقعب[1] الحيس [2] عند رأسه يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غير لونه، وأذهب لحمه، ونهك جسمه، حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها، فيبكي لما كان يعرف من نعمته، وحلفت أمه حين أسلم وهاجر ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشيا عليها، وكان بنوها يحشون فاها بشجار وهو عود فيصبون فيه الحساء[3] لئلا تموت[4].

قال ابن سيد الناس –رحمه الله–:"ولقي المسلمون من كفار قريش وحلفائهم من الأذى والبلاء عظيما، ورزقهم الله من الصبر على ذلك عظيما، ليدخر لهم ذلك في الآخرة، ويرفع به درجاتهم في الجنة. والإسلام في كل ذلك يفشو ويظهر في الرجال والنساء"[5].

كان يزيدهم رضوان الله عليهم الإيلام المستمر إيمانا ويقينا، واستمساكا قويا بدينهم، فتحملوا وصبروا وصدقوا، لأنهم تربوا في حضن الصحبة النبوية، وفي مدرسة التربية في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

---

(1) القَعْبُ: القَدَحُ الضَّخْمُ الجافي، أو إلى الصِّغَرِ، أو يُرْوِي الرَّجُلَ، ج أَقْعُبٌ وقِعابٌ وقِعَبَةٌ. القاموس المحيط، باب الباء، فصل العين، ص153.

(2) الحَيْسِ: الخَلْطُ، وتَمْرٌ يُخْلَطُ بِسَمْنٍ وأَقِطٍ، فَيُعْجَنُ شديداً، ثم يُنْدَرُ منه نَواهُ، ورُبَّما جُعِلَ فيه سَويقٌ، وقد حاسَهُ يَحيسُهُ، القاموس المحيط، باب السين، فصل الحاء، ص564.

(3) الحَسَاءُ: مثل سَلام الطبيخ الرقيق يحسى. المصباح المنير، كتاب الحاء، مادة: حيس، ص85.

(4) الروض الأنف، 252/2.

(5) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 203/1.

كان الحبيب المصطفى ﷺ يربيهم على التؤدة، ويثبتهم عند الشدائد، ويواسيهم ويوصيهم بالصبر والتحمل، ويبشرهم بالدرجات العلى وجنات النعيم، ويلقي في قلوبهم ببيان أن الإيمان يوجب تحمل المشاق، وأن ثواب الآخرة ثمنه من تحمل ما يقتضيه الحق في الدنيا، وببيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلو إيمانهم ويظهر صبرهم[1]، كما كان يقول لآل ياسر: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

هذا، والقرآن ينزل ويحضهم على الصبر ويذكرهم بقصص السابقين الذين تحملوا الأذى وصبروا، حتى أتاهم نصره، فنزلت سورة الكهف التي تقص عليهم قصة أهل الكهف[2] أولئك الفتية الذين ثبتوا على دينهم وصبروا على الإيذاء

---

[1] خاتم النبيين ﷺ، 481/1.

[2] إن القصة هي أفضل وسيلة لتربية النفس البشرية، وتهذيبها، وتطهيرها مما علق على مشجبها من الآفات والعاهات والعلل، وإذا أحكمت صورتها وأحداثها كان لها تأثير قوي في التربية، ولهذا عني بها القرآن الكريم اعتناء كبيرا، لما فيها من العبر والعظات تنفع السالك إلى ربه المجاهد في سبيل الله، الحامل للواء الدعوة إلى الله.

والقصة وسيلة محببة للكبار والصغار وأثرها يبقى في القلب لوقت كبير، واستخراج الفوائد منها والمقاصد من ورائها أمر يسير لذلك استخدمها القرآن الكريم للتعليم وتثبيت قلوب المؤمنين كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(يوسف: 3)، وقال جل وعلا: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(هود: 120).

وكما ملأت قصص الأنبياء السابقين والأمم الغابرة كتاب الله تعالى، كذلك ذخرت سنة المصطفى ﷺ بهذه الوسيلة من وسائل الدعوة كما في حديث الثلاثة أصحاب الغار ، وقصة الأبرص والأقرع والأعمى، وقصة صاحبي جرة الذهب، وقصة المتداينين من بني إسرائيل.. وغيرها من القصص المليئة بالعبر والعظات والتي تعلم منها الصحابة وتأثرت بها الشخصية الإسلامية الأولى، وما زلنا نتعلم نحن أيضا منها.

والابتلاء، وأووا إلى الكهف فرارا بدينهم، ولكأن القرآن الكريم يجيء بهذه القصة، وتتنزل آياتها على جماعة المسلمين، وهم في مكة يلقوْن ما يلقوْن من عَنَتٍ وكيد وبلاء في سبيل عقيدتهم –لكأن القرآن إنما يجيء بهذه القصة في هذا الوقت ليربط على قلوب تلك الجماعة القليلة المستضعفة من المؤمنين، وليريَهم مثلا طيبًا للمؤمنين الذين يسكن الإيمان قلوبَهم، ويملأ مشاعرهم، استجابة لدعوة الفطرة من غير نبيّ ولا كتاب.. ثم لكأن فيما اتجه إليه أصحاب الكهف من الهجرة بدينهم، إشارة واضحة إلى منافذ الفَرَج والخلاص، من مواطن الكيد والبلاء، بالتحول من دار إلى دار، والانتقال من بلد إلى بلد!![1].

ونزلت كذلك سورة البروج التي تقص عليهم قصة أصحاب الأخدود الذين ابتلوا ابتلاء عظيما وأحرقوا في أخاديد... ونزلت آيات كثيرة تواسيهم وتحضهم على الصبر، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحتى تتحقق سنة الله في الكافرين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، نحو قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[2]، هذا توعد من الله تعالى لأهل الكفر والضلال، الذين فتنوا المؤمنين في دينهم، وآذوهم، وصدوهم عن دينهم، بالعذاب الشديد.

ونحو قوله جل وعلا:﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾[3]، وفي هذا إشارة إشارة إلى أن المشركين هم فتنة للنبي وللمؤمنين،

---

[1] التفسير للقرآن، 599/3.

[2] سورة البروج:10.

[3] سورة الفرقان: من الآية20.

وابتلاء من الله لهم بهم، وبما يســوقون إليهم، من مكر، وما يرمونهم به من أذًى... وما على الطائفة المؤمنة إلا الصبر حتى تحقيق النصر.

وهكذا مضــت الآيات القرآنية تذكرهم بســنة الله في الدعوات وفي الرســل وأتباعهم، وأنهم ليســوا وحدهم من تعرض للابتلاء، بل كل من قال ربي الله ونبيي رسول الله ابتلي وامتحن، حتى يتبين صدق إيمانه.

لقد كانت عصــا الأذى تلهب ظهر المســتضــعفين من أهل مكة، فكان لها أنين، وشكوى، وسمع سيدنا رسول الله ﷺ أنينهم، فكان له ألما ممضا، وشكوا إليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة.

ولما هاجر أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة أصيب الكثير منهم ببلاء وسقم؛ لأن المدينة كانت أوبأ أرض الله بالحمى، فصــبروا وتحملوا حتى أجهدتهم الحمى فدعا النبي ﷺ ربه فصرف عنهم ذلك[1].

من هنا "كانت التربية على الصــبر هي الوســيلة الناجعة لتجاوز فترة الأزمات، وهي تحتاج إلى مدة من الزمن ينتقل الإنســان فيها من موقف إلى آخر أشد منه ودواليك"[2].

إن الصبر هو ذلك النور الذي أضاء للشخصية الإسلامية الأولى طريقها، فحققت العزة لأمتها، ورفعت راية الإســلام عالية مرفرفة على ربوع المعمورة، وصــدق الله تعالى القائل في كتابه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

[1] انظر مثلا: البداية والنهاية، 2/228-231.

[2] منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص78.

صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1]. صبر على البناء وصبر على الأذى والابتلاء، فخَصلة الصدق العظمى أهلتهم للإمامة وقيادة العالم.

10-الجهاد في سبيل الله:

للجهاد في سبيل الله أعظم الأثر بناء الشخصية الإسلامية؛ وذلك من خلال التحرر من العبودية لغير الله تعالى، والتخلص من آلام النفس بالرضا والطاعة، وإعلاء كلمة الله في الأرض، ونشر دينه بين العباد، والوقوف في وجه الظلم، والسعي في مصلحة الأمة.

هذا، ولا أقصد بالجهاد حمل السيف في وجه فحسب، وإنما أقصد به مفهومه الواسع وهو: أن يكون كل فرد من أفراد الأمة المسلمة في بذل جهد مستمر صباح مساء ليحيا الإسلام وتقوى شوكة المسلمين، وتنتشر الدعوة الإسلامية في العالمين، وينالوا رضا الله يوم الوقوف بين يدي الله تعالى؛ بتزكيتهم لنفوسهم واهتمامهم بمصير أمتهم.

أضف إلى ذلك أن كلمة الجهاد في القرآن الكريم والسنة النبوية لا تومئ إلى معنى لغوي واحد في كل ورودها، بل تعني بذل الجهود والمساعي في تحقيق المطلوب وتحصيل المقصود.

والجهاد في سبيل الله هو نتاج الخطوات السابقة، وهي مصب الروافد السابقة من محبة لرسول الله ﷺ واجتماع على الله، وإيمان صادق، وأخلاق

---

[1] سورة السجدة:24.

حسنة، وصدق مع الله، وبذل في سبيل الله، وعلم وعمل، وتحمل الأذى في الله صبرا واحتسابا...

وقد بذل الصحابة ﷺ الأرواح والمهج في سبيل نصرة الإسلام –بفضل تلك التربية النبوية العالية، والدفاع عن خير الأنام عليه أزكى الصلاة والسلام، أخرجوا من ديارهم، وتركوا كل ما يملكون في سبيل الله تعالى، وكفلوا الدعوة، وأزالوا كل طاغية ومعتد وقف في طريقها، فقرروا سلطان الله في الأرض، وأقاموا العدل فيها، وحققوا العدالة الاجتماعية للبشرية جمعاء، وحفظوا لها الحقوق والحريات، بل رفعوا كلمة الله في الأرض، ونصروا دينهم ونبيه الكريم ﷺ.

كما شاركوا في جميع مراحل الدعوة، سرا وجهرا، هجرة ونصرة، وقد رأينا أبا بكر الصديق ﷺ كيف دعا أصحابه إلى الإسلام فأسلموا، وقد رأينا أولئك النفر من الأنصار ﷺ لما بايعوا النبيﷺ البيعة الصغرى والكبرى كيف رجعوا إلى يثرب وبدأوا ينشرون دعوة الإسلام هناك، حتى لم تبق دار من دور المدينة إلا ودخلها الإسلام...

كما بذلوا قصارى جهدهم وكل ما في وسعهم، وشمروا على سواعد الجد لبناء مجتمع فاضل قاعدته التعاون والتآلف والتآزر، وجماله المحبة الصادقة، والأخوة الحانية، والرحمة الدائمة، ولذلك لما هاجر من هاجر إلى المدينة قاموا قومة رجل واحد صحبة النبي ﷺ، فَبَنَوْ المسجد، وشاركوا في بناء المجتمع الإسلامي العمراني الخالد...

أضف إليه مقارعتهم للشرك في عقر داره، وإسهامهم في بناء دولة الإسلام في المدينة المنورة؛ فكان منهم صاحب السر[1]، وصاحب الشرطة[2]، وكان منهم حراس النبيﷺ[3]، وحراس المدينة ليلا[4]، وكان منهم من كان يقوم بتنفيذ أحكام الحدود[5]،وكان منهم حجاب النبي ﷺ[6]، وكان منهم حاملو خاتم الرسول[7]، وكان منهم من كلف بجمع المعلومات[8] من الأعداء[9]، وكان منهم

(1) وهو: سيدنا حذيفة بن اليمان ﷺ. ينظر: تخريج الدلالات السمعية للخزاعي، ص61.

(2) وهو: سيدنا قيس بن عبادة ﷺ. ينظر التراتيب الإدارية، للكتاني، 22/1.

(3) وهم سادتنا: سعد بن زيد الأنصاري، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وأبو أيوب الأنصاري، وبلال الحبشي، وزكوان بن عبد قيس، وعباس بن بشير ﷺ. ينظر: التراتيب الإدارية، 288/1. تخريج الدلالات السمعية، ص462.

(4) وهم سادتنا: سعد بن أبي وقاص، وبديل بن ورقاء، وأوس بن ثابت، وأوس بن عرابة، ورافع بن خديج ﷺ. ينظر: التراتيب الإدارية، 245/1. 288/1.

(5) وهم سادتنا: علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة والزبير بن العوام وعاصم بن ثابت وبلال بن رباح الحبشي ﷺ. ينظر التراتيب الإدارية، 258/1. تخريج الدلالات السمعية، ص325.

(6) منهم سادتنا: أنس بن مالك ورباح بن الأسود وأبو أنسة وعبد الله بن زغب الإيادي ﷺ. ينظر التراتب الإدارية، 90/1.

(7) منهم: سيدنا حنظلة بن الربيع. العقد الفريد، لابن عبد ربه، 244/4.

(8) ما يطلق عليه اليوم بجهاز المخابرات.

(9) منهم سيدنا عمرو الجهني ﷺ. تخريج الدلالات السمعية، ص467.

كتاب الرسول ﷺ[1]، وكان منهم من كلف بجهاز الإعلام[2]، إلى غير ذلك من المَهمات التي تحملوها في هذه الدولة الإسلامية الجديدة، كما قاموا بحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية، والتزموا بمعاهدة المدينة...

أما الجهاد القتالي: فقد غزا النبي ﷺ وأصحابه ﷺ بضعا وعشرين غزوة، وبعث من السرايا ما يبلغ الأربعين سرية على اختلاف في ذلك بين أصحاب السير والمغازي...

وفي كل غزوة أو سارية تظهر بطولات الشخصية الإسلامية الأولى –التي تربت على هذا الجهاد– وتضحياتها الجسام، ومفاخرها العظام في الذود عن حوزة الإسلام، فكانت في شجاعتها وثباتها على الحق مضرب الأمثال.

هكذا بنى النبي ﷺ قاعدة قوية صلبة "قادرة بعد ذلك على تحمل ضغوط الوثنية عليها في فتنتها عن دينها: اضطهادا وتعذيبًا، ونفيًا وقتلاً، وقطيعة، وتجتاز الابتلاء بصمود وروح معنوية عالية نحو تحطيم النظام الجاهلي والتمكين للنظام الإسلامي بديلا عنه"[3].

(1) وقد تجاوز عددهم الأربعين –حسب ما ذكره كتاب السير والمؤرخون–، منهم الخلفاء الأربع ﷺ... ينظر: العقد الفريد، 250/4. التراتيب الإدارية، 151/1.

(2) جهاز الإعلام كان يمثله عدد من الشعراء والخطباء، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومن خطبائه: ثابت بن قيس. ..ﷺ. ينظر: التراتيب الإدارية، 190/1. تخريج الدلالات السمعية، ص235.

(3) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص76.

خاتمة:

بتلك العناصر الكبرى السابقة تم بناء الشخصية الإسلامية الأولى (جيل الصحابة ﷺ)، وصدق ربنا الكريم القائل في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (1)، لما غيَّر أولئك الرجال ما بأنفسهم بفضل التربية النبوية والصحبة المصطفوية؛ فخرجوا من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن البغض والحقد إلى المحبة والصدق، ومن الغفلة عن الله إلى ذكره وعبادته، ومن ضن النفس وشحها إلى البذل في سبيل الله، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن القعود والكسل إلى العمل الصالح، ومن الشرك إلى زُياله، ومن عادات الجاهلية إلى أخلاق الإسلام، ومن الغضب والاستعجال والتهور إلى التؤدة والتحمل والصبر، ومن التبذير والترف والزيغ إلى الاقتصاد وإقامة الوجه لله تعالى، ومن الأماني المعسولة والقعود والنكوص إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ونصر دين الله ﷻ، وتبليغ رسالة دعوة الإسلام لخلق الله أجمعين. لما غيَّروا زكت نفوسهم وتطهرت قلوبهم، غيَّر الله ﷻ ما بهم، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ورفع مقامهم في عليين، وفضلهم بصحبة خاتم النبيين عليه أزكى الصلاة والتسليم اللَّهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾(2).

وبإجمال؛ فإن المنهاج النبوي في بناء الشخصية الإسلامية كان وفق هدي السنن الإلهية، ويكفينا أنها كانت خاضعة لسنة الله في التدرج في تزكية النفوس وبناء الإنسان، كما خضعت لسنن أخرى لها أهمية كبيرة في صناعة

(1) سورة الرعد: من الآية11.

(2)سورة الأنعام:90.

الشـخصـية المسـلمة، كأهمية المحبة في صـناعة الرجال العظماء، وأهمية الجماعة المؤمنة في تلقي التربية ولَمِّ الجهود وتوحيد الكلمة، وأهمية الإيمان والعقيدة السـليمة والعبادة الخالصـة في تنزل البركات، وأهمية العلم والعمل في الحفاظ على كيان الأمة وازدهار العمران البشري.

وفي ضوء ما تقدم أختم بالنتائج الفرعية الآتية:

- إن محبة سيدنا رسول الله ﷺ هي العنصر الأول في بناء الشخصية الإسلامية، ذلك بأنه الأسوة الحسنة والقدوة المثلى والوحدة القياسية التي اجتمعت فيها حالة السواء.
- إن محبة رسـول الله ﷺ يتجلى في الاتسـاء والاقتداء بهديه ﷺ، والانجذاب القلبي العاطفي نحو جنابه الشريف.
- إن البناء داخل الجماعة المؤمنة، عنصر ثان في تكوين الشخصية الإسلامية؛ وذلك عبر بث روح العمل الجماعي فيها، وحضها على الاجتماع على الله تعالى، استجابة للخطاب الإلهي الذي يدعو المؤمنين بصيغة الجمع، ولأمره الداعي إلى الاعتصام بحبله المتين.
- إن البناء الإيماني شرط أساس في بناء الشخصية الإسلامية، ولا يمكن تصور شخصية إسلامية بغيره، وذلك نظرا إلى أن أثره في سلوك الإنسان وتصرفاته وأفعاله كبير.
- إن الأخلاق أساس الفوز والفلاح، ومنطلق بناء المجتمعات الإسلامية الفاضلة، ومعقد ثابت تعقد به الروابط الاجتماعية، تغرس في نفس صاحبها الرحمة، والصدق، والعدل، والأمانة، والحياء، والعفة، والتعاون، والتكافل، والإخلاص، والتواضع... فتثمر شخصية إسلامية راقية لا تنال منها عوامل التردي والانحطاط..

- إن البذل والعطاء والاقتصاد والعمل الصالح من شأنه أن يبني مجتمعا متكافلا متضامنا سليما محصنا، يسوده النظام والأخوة والانسجام.
- إن العلم النافع يبين للإنسان طريق الحق والخير وينير له سبل الحياة فيمضي فيها على هدى من ربه، كما يبصره بطريق الشر كي ينأى عنه.
- إن الجهاد –بمفهومه الشامل– وتحمل الأذى في الله صبرا واحتسابا لمن أهم مقومات صناعة الشخصية الإسلامية القوية التي لا تخاف في الله لومة لائم.

إن العناصر السابقة متماسكة الأجزاء، تتشابك فيما بينها، وهي بمثابة الأربطة التي تشدُّ المعاقد إلى المعاقد، فتكون الشخصية المسلمة القوية، ينتج عنها المجتمع الإسلامي الفاضل.

وصلى الله وسلم على سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

1-القرآن الكريم.

2-**أخلاقنا الاجتماعية**، مصطفى السباعي، دار السلام، القاهرة، ط2، 1426هـ - 2005م.

3-**أدب الدنيا والدين**، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري المَاوَرْدي الشافعي (364-450هـ)، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر العاصمة، ط1/1427هـ-2006م.

4-**أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع**، عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، ط25: 1428هـ/2007م.

5-**البداية والنهاية**، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد محمد تامر، شريف محمد، محمد عبد العظيم، محمد سعيد محمد، دار البيان العربي، مصر، ط/د،ت.

6-**تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية**، علي بن محمد بن أحمد بن موسى ابن مسعود، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين، الخزاعي (ت: 789هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط2: 1419هـ.

7-**التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلمية**، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (ت: 1382هـ)، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم – بيروت، الطبعة الثانية.

8-تاريخ الطبري الموسوم ب:تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224هـ-310)، تحقيق: مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط/د،ت.

9-تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ط!/د،ت.

10- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، ط/د،ت.

11- التعريفات، السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي (ت816هـ)، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1424/2هـ-2003م.

12-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1420/1هـ-2000م.

13-جدد حياتك، محمد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط1425/19هـ-2004م.

14-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الشهير بتفسير الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)، تحقيق: أحمد عبد الرزاق البكري ومحمد عادل محمد ومحمد عبد اللطيف خلف ومحمود مرسي عبد الحميد، إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد المنعم مذكور، نسخة مقابلة على مخطوط كامل ومراجعة على نسخة الشيخين: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر، دار السلام، القاهرة، ط1428/2هـ-2007م.

15-حكم العمل في جماعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عبد الله عزام، دار ابن حزم، بيروت، ط/1417هـ-1996م.

16-**خاتم النبيين ﷺ**، محمد أبو زهرة، اعتنى به: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، د،ت.

17-**دراسات إسلامية**، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/-1995م.

18-**ديوان الإمام الشافعي**، جمعه وشرحه: نعيم عدنان زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.

19-**الذخائر المحمدية**، محمد بن علوي المالكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1427/1هـ-2006م.

20-**الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي السهيلي (ت581هـ)، علق عليه: مجدي بن منصور بن سيد الشوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1/د،ت.

21-**سنن ابن ماجه**، محمد القزويني الشهير بابن ماجه (209-273هـ)،حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط1/د،ت.

22-**سنن الترمذي**، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت297هـ)، ضبطه وصححه: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2003/1م.

23-**سنن أبي داود**، أبو داود سليمان ابن الأشعث السجستاني (202-275هـ)، تحقيق: محمد بربر، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط2006/1م.

24-**سنن النسائي**، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الشهير بالنسائي (215-303هـ)،علق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف، الرياض، ط1/د،ت.

25-**السيرة النبوية المعروفة بسيرة ابن هشام**، عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: جمال ثابت ورفاقه، دار الحديث، القاهرة، 2004م.

26-**السِّـــيرةُ النّبويـة- عرضُ وقـائع وَتحليـل أحـدَاث**، عَلي محمـد محمـد الصَّلاَّبي، دار المعرفة ، بيروت – لبنان، ط7: 2008م.

27-**سيرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها**، سليمان الندوي، عربه وحققه وخرج أحاديثه: محمد رحمة الله حافظ الندوي، دار القلم، دمشق، ط2003/1م.

28-**صحيح البخاري الموسوم: بالجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسـول الله ﷺ وسُننه وأيامه**، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بَردزبَة البخاري الجُعفيّ (ت256هـــ)، ضبط النص: محمود محمد نصّار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1425/4هـ-2004.

29-**صـحيح مسـلم**، أبو الحسـن مسـلم بن الحجاج ابن مسـلم القشـيري النيســابوري (ت261هـــــ)، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط/1424هـ-2003م.

30-**صفة الصفوة**، جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي (510-597هـ)، خرج أحاديثه: محمد بن عيادي بن عبد الحكيم، أحمد بن شـــعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، ط1424/1هـ-2003م.

31-"**عقبات في طريق النهوض والبناء**"، مقال لفاروق حمادة، مجلة بصـائر الرباط، الصادرة عن دائرة الرباط العلمية للبحث في الدراسات الإسلامية، العدد الثاني، المحرم 1427هـ-فبراير 2006م.

32-"**العمل والتربيـة الحيـاتيـة من منظور إســـلامي**"، مقال لبركات مراد، المنشور بمجلة البيان، السنة العدد 231، السنة21، ذو القعدة ديسمبر2006م.

33-**عيون الأثر في فنون المغازي والشـمائل والسـير**، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سـيد الناس اليعموري (ت734هــــ)، تحقيق: محمد العيد

الخطراوي –محيي الديم متو، دار التراث، المدينة المنورة، دار ابن كثير دمشق- بيروت، ط1413/1هـ-1992م.

34-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (773_852هـ)، الطبعة التي حققها عبد العزيز بن باز، ورقم أبوابها وأحاديثها: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى، ومكتبة العلم القاهرة، ط/د،ت.

35-فقه السيرة، محمد الغزالي، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1408/8هـ-1988م.

36-الفصول في سيرة الرسول ﷺ، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، الشركة الجزائرية، اللبنانية، الجزائر العاصمة، ط1427/1هـ-2006م.

37-القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، قدم له وعلق عليه: الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2004/1م-1425هـ.

38-كتاب الزُّهد، وكيع بن الجراح (ت197هـ)، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر ط1م1427هـ-2006م.

39-لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (711هـ)، بيروت، دار صادر، ط/د.ت.

40-محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد السيد علوي ابن السيد عباس المالكي الحسني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1426/1هـ-2006م.

41-مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الفكر، بيروت، ط1997/1م.

42-**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3: 1416هـ-1996م.

43-**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟** أبو علي الحسن الندوي، دار الجيل بيروت، ط (د.ت).

44-**المستدرك على الصحيحين وعليه تعليقات الذهبي في التلخيص**، محمد بن عبدا لله أبو عبدا لله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1/ 1411هـ-1990م.

45-**المسند**، للإمام أبو عبدا لله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1: 1421هـ-2001 م

46-**مشكلات وحلول: الفقر الجوع الحرمان**، مصطفى السباعي، دار الوراق-بيروت، دار النيربين-دمشق، ط1422/1هـ-2002م.

47-**المصباح المنير**، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1420/3هـ-1999م.

48-**منهج التربية الإسلامية**، محمد بن قطب بن إبراهيم، دار الشروق، الطبعة السادسة عشرة.

49-**منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة**، محمد أمحزون، دار السلام، القاهرة، ط2، 1424هـ-2003م.

50-**نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار**، محمد بن علي الشوكاني، اعتنى به وخرج أحاديثه: محمد محمد تامر، محمد عبد العظيم، تقديم وتعريف: وهبة الزحيلي، دار ابن الهيثم، القاهرة، ط/د،ت.